الإباضية في موكب التاريخ - 2

الاباضية فى ليبيا

(الجزء الثاني)

تأليف: الشيخ علي يحي معمر

الاباضية فى ليبيا

(الجزء الثاني)

تأليف: الشيخ علي يحي معمر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا القسم الثاني من الحلقة الثانية أيها القاريء الكريم، وبه تتم الصورة التي أردت أن أضعها بين يديك عن الإباضية خلال عشرة قرون تقريباً، وذلك منذ دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا في أوائل القرن الثاني الهجري إلى دخول ليبيا تحت الخلافة العثمانية. وقد علمت أيها القارئ الكريم أنني لم أسلك في هذا الكتاب مسلك المؤرخ الذي يتتبع دورة الزمن، وترابط الاحداث، وإنما حاولت أن أصور الفرد والمجتمع الإباضي في هذه القرون الطويلة، فهذا الكتاب نواة لدراسة اجتماعية، كما أنه بداية لمحاولة تاريخية، ورغم أنني بذلت في جمع هذه الصور وتنسيقها جهوداً، واستنفدت وقتا، إلا أنني غير راض عن عملي هذا، وكلما رجعت إليه شعرت بنقص في جوانب كثيرة منه، بعضها لا أملك إتمامه في الوقت الحاضر، وبعضها قد يتيسر لي إتمامه بعد عناء وجهد، ولكنني لا أملك الوقت الذي أبذل فيه هذا العناء، واستفرغ ذلك الجهد.

وقد عنيت بصفة خاصة في هذا الكتاب أن أضع لك صور للمنطقة التي عمرها الإباضية من قديم، ولا يزالون يعمرونها أو يعمرون بعضها، حتى يتم لك فهم الرباط الذي يمسك هذا المجتمع المتماسك، الذي استعصى على قوى جميع الجيوش المخربة،

والدول الساعية وراء التوسع والملك، فمرت تلك الدول واحدة إثر أخرى تملك كل ما يجاور ذلك الجبل، ويستعصي هو عليها، فلا تنال منه منالا، اللهم إلا غارات تصيب فيها دماء أو أموالا !. وإلا عدوانا تحرق فيه أشجاراً وأغلالا، كما فعل الميورقى وإبراهيم بن الأغلب، ومن سلك مسلكهم، وبقى هذا الجبل المنيع يعيش على النظام الذي اختاره لنفسه حتى دخلت الخلافة العثمانية إلى ليبيا، فدخل تحت جناحها، وأوى إلى ركنها، ورضى أن يخضع لسلطانها وحمايتها.

والآن أرجو منك أيها القارئ الكريم أن تقرأ هذا الكتاب بذهن متفتح، يرتفع عن العصبية في أي لون، وما تراه مشعراً بذلك في هذا الكتاب فقد دعا إليه التخصص الموضوعي للكتاب، فإن رأيت أنه تجاوز ذلك إلى أن يكون دعوة إلى عصبية ضيقة فانبذه على طول ذراعك، والله يعلم أنني أحرص كل الحرص أن أكون داعي ألفة ومحبة بين المسلمين، وأن أرى أبناء هذه الأمة العظيمة التي اختارها الله لقيادة البشرية، وهم ينبذون أسباب الخلاف الذي ماتنفك تثيره الأيدى الأثيمة، والأفهام السقيمة، ويتجهون جميعا إلى الله بقلوبهم وأعمالهم، ويندفعون في إيمان وإخلاص لحمل الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عهد إليهم لإيصالها إلى الناس أجمعين.

القاهرة : 23 ربيع الأول 1384 هـ

أول اغسطس 1964 م

على يحيى معمر

الكفاح العلمي

انحرف السياسيون والعسكريون في الأمة الإسلامية بعد الخلافة الرشيدة عن الاتجاه الذي يدعو إليه الإسلام، وبدلا من أن يبقى الفكر، وأن تبقى السيوف خدما للرسالة العظمى، التي تصون الإنسانية من الانزلاق مرة أخرى ؛ بدلا من ذلك استخدمت في توفير المتعة والثروة لعدد ضئيل من الناس، واتجه الملوك الظالمون وأتباعهم إلى اقتباس حياة بعيدة عن روح الإسلام، فجلبوها من بلاط الروم أو الفرس، وكونوا في الأمة المسلمة التي كانت وحدة متكاملة يستوي فيها جميع الأفراد ...

كونوا في هذه الأمة الكريمة التي وحدتها العقيدة، وأعزها الإسلام، وساوى بين جميع عناصرها – العبودية لله وحده – نظاما طبقيا بغيضا ؛ تنقسم فيها الأخوة إلى طبقة حاكمة، وطبقة محكومة، وعملوا على أن تكون الطبقة الحاكمة صاحبة الحق في كل شئ، وأن تكون الطبقة المحكومة ليس لها حق في شيء...

بل يجب عليها أن تكد وتعمل لتوفر للطبقة الحاكمة أسباب المتعة والراحة والرغد ...

وهكذا ارتكست الإنسانية من جديد، ورجعت إليالمجتمع بعض

الأمراض التي جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها، ومنذ بدأ هذا الاتجاه الخاطئ في الأمة الإسلامية، قام المؤمنون المستمسكون بدين الله يحاربون هذا الانحراف، ويقومون هذا الخطأ في الاتجاه، ونجحوا مرات، وأخفقوا مراراً، إلا أن هذا الكفاح استمر طويلا، ولا زال مستمرا إلى اليوم، وإلى أن يسود الحق والعدل والحكم بشرع الله ...

وفي الفصول السابقة التي تحدثت فيها عن بعض الأبطال الذين كافحوا هذا الباطل الذي استعلن، والظلم الذي انتشر، صور من هذا الكفاح الطويل، وليس هذا الكفاح مقصوراً على ليبيا، أو على الإباضية، ولكنه لم يخل بلد من بلاد الإسلام، ولا فرقة من فرق المسلمين من رجال أو هيئات أخذوا على أعناقهم ألا يهادنوا الظلم، وأن لا يخضعوا للطغيان، وأن لا يستنيموا على الذل، وأن لا يسكتوا عن الانحراف.

ومع هذا الانحراف السياسي في الاتجاه الخاطئ، والبعد عن روح الإسلام، وقعت انحرافات من الاتجاه الديني، والعلمي، والخلقي، وكما اقتبس رجال الحكم نظم الحياة من ملوك سابقين، أخذ ناس من أصحاب الفكر يقتبسون الآراء والعقائد من ديانات باطلة، وفلسفات خاطئة، يدخلونها في دين الله، ومن الناس من يعمل هذا العمل عن حسن نية، ومنهم من حملهم الحقد على الإسلام والكره له، على إدخال بدع لإفساد العقيدة، أو لإيقاع الخلاف بين علماء الأمة وعبادها.

ومن جهة أخرى قام علماء الدينا الذين يسيرون في مواكب

الملـوك الظالمين، يحـدون لهم ويصفقـون، قام أولئـك العلماء، يزينون للسـلاطين أعمالهـم، ويضفون عليها صبغة شـرعية، ويخففـون عليهـم ضغط النقـد العنيف الـذي يوجهه إليهم العلماء المؤمنون..

وعندما بدأ هذا الانحراف في التيار الديني، والعلمي، والفكري، وقف علماء الإسـلام المخلصون، يقاومون هذا التيار المنحرف،الذي يرد عليهم في صور مختلفة، ودافعوا في عزم وإصرار، ليحافظوا علـى صفاء الإسـلام في أحكام الشـريعة وأحـكام الدين على السـواء، وقد اتخذ هـذا الدفـاع موقفين متسـاندين، أحدهما علاجي، الثاني وقائي :

` أمـا الموقف العلاجي : فقد كان هؤلاء العلماء الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن صفاء الإسلام، في دينه،وشريعته، يتصدون للأباطيل التي يروجها أعداء الإسلام فيهدمونها، ثم يبينون الحق الذي يجب أن تسـير عليه القافلة المؤمنة فـي ركب الحياة، وهي تحذر الوقوع في شـراك يبثها الحاسـدون من أرباب ديانات سابقة أبطلها الإسلام، وبدع ينشـرها منحرفون عن القصد يتصيدون بهـا الزعامة، وأضاليل ينعق بها علماء دنيا غلبتهم أنفسـهم، واسـتولى عليهم الشـيطان ؛ وزيع عن مناهج الإسـلام يحبذه الاستعمار واعوانه، ليشغلوا به شباب هذه الأمة بالمتعة المحرمة، عـن الشـهامة والشـجاعة والمروءة، والعـزة، تلك الأخـلاق التي تربـأ بالرجل أن ينحدر عـن دينه أو مبدئه مهما كانت الأسـباب والدوافع.

ولقد اسـتمرت هذه المعركة حامية الوطيس منذ بدأت – ولا تزال مسـتمرة، فإن أعوان الشـيطان من عمال صهيونية كائدة، وصليبيـة حاقـدة، واسـتعمار نهم لا يشـبع، ثم من مسـلمين مفتونين، غرهم سـراب براق فـي الحياة المادية التـي يحيا عليها الغـرب اليـوم، وقد تجرد مـن جميع المثـل ليعيـش للمتعة كما يعيش الحيوان ...

هذه القوى وغيرها لا تزال متظافرة الجهود، تحارب الإسلام في عدله ونزاهته وسـموه، ولا تزال علماء الإسلام يواصلون دفاعهم لهذه الجهود الكافرة المتظافرة التي تحاول أن تحطم الإنسانية في الإنسـان، لتترك منه حيواناً فاقد الحياء، يعيش بغريزته، ويتعامل على أساسـها في قيم الحياة الأولى، وإلى أن يأذن الله بنصر الحق، ويقضـى بنهاية هذا التمرد على حكمة الخالق وحكمه ؛ سـوف تستمر هذه المعركة دائبه حادة.

` وأمـا الموقـف الثانـي الوقائي: فقـد تظافـرت عليه جهود العلمـاء الأعلام مـن الأمة، وذاك بالتربيـة الصحيحة، والتعليم الحق، والكشـف عن مزايا الإسلام، وفي هذا الموقف كان المخلصون من الأمة يعملون جاهدين، وبما لديهم من قوى في إنشاء المدارس، وبث الوعي الديني في الأمة، ونشر الثقافة الصحيحة بين جميع الطبقـات، وإرسـاخ قواعـد الإسـلام وحكمه وأخلاقـه ونظمه للحيـاة والمجتمع، فـي قلوب الناس، وفي أعمالهـم ومعاملاتهم، فهم كانوا حراصا على أن يغرسـوا الفضيلة بمعانيها الواسعة. فضيلـة الخلق، وفضيلـة الدين، فـي قلوب الناس، قبـل أن تحتل القلـوب آراء أخرى بعيدة عن الإسـلام، أو بعيـدة عن الخلق. وفي

غرس الفضيلة في القلوب الغضة الطرية – حتى تصبح عقيدة أو خلقا – وقاية للنفس من أن تتسرب إليها أمراض أخرى والقيام بهذا العمل في الشباب الذي يقبل على التعليم قد يكون أمراً ميسوراً، أما أولئك الذين حرموا نعمة التعليم، وأجبرتهم ظروف الحياة والعمل على أن يزودوا معاهد المعرفة، كان هؤلاء الطبقة من الناس تكون مشكلة بالنظر إلى العلماء والمصلحين، ولذلك فقد جعلوا من همهم أن يقوموا بدروس الوعظ والإرشاد في مستوى هذه الطبقة، حتى يثقفوا عقولها بالمعرفة، ويملأوا قلوبها بالإيمان، ويشغلوا أوقاتها بالعمل.

وكانت وقاية للشباب من أن يلقنوا الخطأ، ووقاية للناس من أن يستغلهم المستغلون.

كان القيام بهذه المهمة فيه عسر وفيه مشقة، وقد تتطلب معالجة هذه الحالة من العالم المصلح أن يكون متحركا، لا يقيم في مكان، وقد كانوا يحاربون عدوان البدعة أوالضلالة أوا لجهل، كما يحاربون العدو الذي يحمل آلات الخراب والتدمير، فيركزون دروسهم في محل ما، حتى يطمئنوا إلى أنهم قد حقنوا تلك النواحي بالمصل الواقي، وأصبحوا لا يخافون عليها، فينتقلون إلى مكان آخر، يقومون فيه بنفس العلم، ويواصلون كفاحهم من أجل سلامة العقائد والعقول،كما كان يفعل أبو موسى عيسى الطرميسي، وأبو ساكن الشماخي، وآلاف غيرهم من علماء الإسلام المخلصين في كل فرقة، وفي كل بلد من الوطن الإسلامى الفسيح.

وفي هذا القسم من الوطن الإسلامي الكبير، وعند هذا الجزء الصغير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقف علماء الإباضية كما وقف غيرهم من العلماء والأعلام منذ انتشر الإسلام في هذه البقاع، يدافعون عن صفاء الإسلام، منهم من يتصدى للدفاع في الموقف العلاجي فيدافع البدعة، ويرد الضلالة، ويحطم الباطل، ويبطل كيد الكائدين ؛ ثم يدعو الناس إلى الاغتراف من النبع الصافي، الذي جاء به دين الله. ومنهم من يتصدى للدفاع في الموقف الوقائي، فينشيء المدارس ويضع لها المناهج حسب وصايا الإسلام، ويتولى الإشراف عليها، وتربية الأجيال المتخرجة منها. ثم يواصل هذا الكفاح الوقائي، فيلقي دروس التوجيه العام، فينير سبيل الله للسالكين، ويملأ قلوبهم بالفضائل التي دعا إليها خاتم النبيين وسيد المرسيلين. وفي الفصول الآتية سوف أعرض صوراً من هذا الكفاح الطويل ... الكفاح العلمي، ضد الجهل وضد البدعة، وضد الضلالة وضد الخرافة، وضد الدسيسة التي جاءت قديما عن طريق الديانات التي أبطلها الإسلام، وتجيء اليوم عن طريق الاستعمار والصهيونية، يقوم بهذا الكفاح أبطال وهبوا أنفسهم بما تملك من قوى لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله.

وأنا في هذه الصور التي سوف أعرضها على القاريء الكريم في سير أبطال من أعلام الإسلام لا أزعم أن هذا الشرف مقصور على هؤلاء الناس الذين تحدثت عنهم، أو ذكرت أسماءهم، ولا أزعم أنه مقصور على هذه الفرقة من فرق المسلمين الكثيرة التي تجهد كل واحدة منها أن تنال رضا الله، وتظفر بمحبته

ومغفرته.

وإنما ضربت بهؤلاء المثل، وأنا أعلم أن الأمة الإسلامية،وأن الوطن الإسلامي، غني بأمثال هؤلاء العمالقة، الذين يكافحون بصمت أو بإعلان، ولن يضير جهادهم استعلان الباطل في بعض الأمكنة أو بعض الأزمنة، ورجحان كفة الشيطان في بعض فترات التاريخ، فإنهم ونحن معهم على يقين بأن كلمة الله سوف تكون هى العليا وأنه سوف يذوب كل ما يرجف به المبطلون ويزعمه المغرورون...

أبو الزّاجِر
إسماعيل بن دَرّار الغدامسي

اجتمع عند أبي عبيدة في البصرة خمسة من أنجب الطلاب : أربعة منهم جاءوا من أماكن متفرقة في شمال أفريقيا ؛ أما الخامس فكان عربيا من اليمن ؛ أما السبب الذي جمع هؤلاء الطلاب عند أبي عبيدة فهو طلب العلم عند إمام من أئمة المسلمين، يملك إلى غزارة العلم روحاً قوية تقاوم الظلم والطغيان والانحراف، وتوثقت الصلة بينهم، وتمتنت الصداقة، وأمضوا في ذلك المعهد العامر خمس سنوات من الدراسة والتحصيل، فلما أتموا دراستهم، فكروا في السفر إلى المغرب كتلة واحدة. واستشاروا شيخهم في رأيهم هذا فوافقهم عليه، ونسى أولئك الأعلام مساقط رؤسهم، وملاعب صباهم، ومواطن أقربائهم، ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون، وأينما كانوا في بلاد الإسلام فهم في وطنهم، وبين إخوانهم وعشيرتهم، وهكذا آخى الإسلام في معهد أبي عبيدة بين بربر وعرب وفرس، كما آخى الإسلام من قبل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين روم وفرس وحبش وعرب، والإسلام لا يعرف الأجناس ولا

العناصر، إنه يصهر كل ذلك في بوتقة واحدة، يخرج منها أمة لا فرق بين أفرادها إلا في مدى يقدمه كل واحد منهم من بر وخير...

سمى هؤلاء الطلاب الذين أصبحوا علماء أجلاء : " حملة العلم إلى المغرب" وقدموا إلى ليبيا، واتخذوا طرابلس مقراً لهم، واشتغل بعضهم بالكفاح السياسي في محاربة الطغيان والظلم، واشتغل البعض الآخر بالكفاح العلمي في قسميه : الوقائي والعلاجي،وقد تحدثنا في فصول سابقة عن الإمام أبي الخطاب، وسوف يأتي الحديث عن أبي عاصم السدراتي، وأبي داود القبلي، في إحدى حلقات هذا الكتاب تحت عنوان الإباضية في تونس، وسيأتي الحديث عن عبدالرحمن بن رستم في حلقة أخرى من هذا الكتاب عنوانها : الإباضية في الجزائر.

بقي لنا من حملة العلم الخمسة : القاضي العادل العالم، أبو الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسي.

قمة شامخة من قمم العلم والفهم والذكاء، ومثل سام من أمثلة الإخلاص والنزاهة والصفاء، وحجة من حجج الله على البشرية، يدعو إلى الحق، لا يبالي رضى الناس أم سخطوا، ويقيم العدل بين الناس، أحبوا ذلك أم كرهوا، ويسير على ما سار عليه علماء الإسلام المهتدون ...

كان عضوا بارزاً في البعثة التي ذهبت إلى البصرة،ودرس على الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وتحمل مع أستاذه وزملائه كثيراً من الأذى والاضطهاد الذي لاقاه الأئمة المرشدون، والعلماء المصلحون ؛ من الولاة والظلمة والملوك البغاة.

ولما بلغ حملة العلم غايتهم من العلم، وقرروا السفر إلى المغرب، حتى خرج الإمام أبو عبيدة لوداعهم، ولم يرد الطالب النجيب أن تمضي هذه الفترة القصيرة التي سايرهم فيها أستاذهم في حديث عادي دون جدوى، وأراد أن يشتغل حتى هذه الدقائق الأخيرة قبل فراقهم لذلك البحر الذي لا ينضب، فكان يوجه إليه في لباقة اسئلة، وكان الإمام العالم يجيب، ولم يقطع المسافة التي قرر أن يرجع منها حتى كان ابن درار قد وجه إلى أستاذه ثلاثمائة سؤال، في مشاكل الأحكام.

وعجب الإمام الكبير من طالبه الذكي، ومن حرصه على الاستفادة أو على الاستيثاق من معلوماته، ومن استحضاره لهذه المشاكل في لحظات الفراق التي تتغلب فيها المشاعر الحساسة، والعواطف الجياشة على التفكير العقلي المتزن، ولما أتم الطالب النجيب أسئلته، وهم الإمام بالرجوع، رفع عينيه إلى تلميذه وهو يبتسم ابتسامة الوالد الحنون، وقد سر من ولده وقال : كأنك تريد أن تكون قاضيا ياابن درار ؟. فأجاب الطالب : أرايت أن ابتليت بذلك ياشيخ.؟

إن هذه الحادثة البسيطة كافية للدلالة على علم الرجل، وعلى خلقه، وعلى دينه. مارأيك أيها القارئ الكريم في رجل يتكبد الرحلة من الجنوب الليبي إلى البصرة في العراق، ويقضي خمسة أعوام تحت عذاب الغربة والحاجة والاضطهاد، ليطلب العلم وينال الأمنية الغالية، بعد أن استنزف ماء شبابه وأذبل زهرة حياته، ويعزم على الرجوع إلى بلدة ومفارقة معهد دراسته، ليحيا الحياة العادية التي يحياها الناس، فيسأله استاذه مازحا

: هـل يريد أن يكون قاضيا ؟ ويجيب الفتى : أنه يعد العدة، فقد تنزل عليه هذه البلية.

إنهـا مصيبة يجدر بالمرء الكريم أن يفر منها، ولكنه في نفس الوقت يجب أن يكون مستعدا لتحملها، والقيام بأعبائها، حتى إذا قدر وأصيب بها، استطاع أن ينهض بهذا الحمل الثقيل ... إنه لا يرى في منصب القضاء أو في أي منصب آخر من مناصب الحكم، ذلك الوجه البراق الذي يسعى إليه عبيد الدنيا، وطلاب الجاه الزائل، السلطان الخادع، ولكنه يرى فيه ذلك الوجه المعتم الذي يجب أن يتحمله المسلم ؛ خدمة لدينه وأمته، وهو عليم أنه لن يجد منه مكسبا دنيويا، أو مغنما ماديا، فإذا قدر في نفسه أو في علمه أنه سوف يغنم منه لدنياه، فقد حاد عن طريق الصواب، وتغلغل في الظلال ...

ولذلك لم يفزع إلى شيخه يطلب منه الدعاء لتحقيق هذا الأمل، وإنما أجابه في خوف ورهبة : أنه يعد نفسه لتحمل المكاره، حتى لا ينوء تحت ثقلها.

وقد كان من إرادة الله، أن تحققت نبوءة الإمام، ونزلت عليه هذه البلية، التي أعد العدة لتحملها ؛ فتولى القضاء للإمام أبي الخطاب عبد الأعلى، وقام بهذه الوظيفة كما يقوم بها مؤمن يعرف دين الله، ويفهم أسرار الشريعة، ويخاف الله في مال الله وعباده، فيتحرى الحق، ويجري العدل، ويتبع السير القويم الذي خلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم..

كان العلامة ابن درار يعلم أن عمله الحقيقي، ليس هو تولي

أي منصب في الحكومة، إن الرسالة المقدسة التي ذهب من أجلها إلى البصرة، وبقى في ديار الغربة خمس سنوات، لاقى فيها من شظف العيش، وظلم الجبابرة الشئ الكثير ؛ هذه الرسالة تستدعى منه أن يتخذ من إمامه أبي عبيدة قدوة ومثالا : إن علمه الحقيقي الذي يجب أن يتولاه، وأن يسهر من أجله، وأن يبذل فيه كل ما لديه من طاقة وجهد، إنما هو التعليم، هو تبليغ رسالة الله إلى الناس، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وتنوير قلوبهم وعقولهم بنور الإسلام، ولذلك فقد كون مدرسته العتيدة : مدرسة الفكرة، ومدرسة الحلقة، وأعطى لأمته من نفسه ومن وقته الشئ الكثير.

فكان منبعاً صافياً، يرده العطاش من كل جهة من بلاد الإسلام، وأدى هذه الرسالة، رسالة التعليم، والثقافة في إيمان وإخلاص، وحرص وصدق، كما أداها شيخه وأستاذه أبو عبيدة ...

وحسبه شرفاً أنه كون عقلية مثل عقلية محمد بن يانس وزملائه، الذين يندر أن يجود الزمان بمثلهم ؛ اتساع ثقافة، ومتانة خلق، وصحة عقيدة، واتصال كفاح الله، وفي الله.

إنه أحد أولئك الإعلام الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقة الوقائية والعلاجية، وإن كانت آثاره في الميدان الأول أكثر وأظهر ...

أبو المُنيب
محمّد بن يانَسْ

هــو أبو المنيــب محمد بن يانــس الدركلي : قــال فيه صاحب السير : "المجاهد لنفســه، المطيع لربه، ذو المناقب الشهيرة، والمآثر الكريمة." ولكن هل تكفي هذه الجمل القصيرة للدلالة على هذه الشخصية الفريدة ؟ ...

إنها شــهادة من أبي العباس، لها قيمتهــا ؛ فأبو العباس من أولئــك الثقــاة الذين يزنون كلامهــم بالميزان الدقيــق، ويحملون الجمــل القصيرة من المعانــي ما يحتاج إلى صفحــات كثيرة من غيرهم.

ولكــن ما أثر ابن يانس في المجتمع وفــي الحياة ؟ وما مبلغ دينه وأمانته وخلقه وعلمه ؟..

طلــب الإمــام عبدالوهاب في تاهرت، من جبل نفوســة مائة عالم من علماء التفسير لمناظرة المعتزلة.

والمعتزلــة قوم ولعــوا بالمناظرة والجدل، فهــم لا ينفكون عن تحدي غيرهــم من الفرق الإســلامية. وكان الإباضية على عكس هــؤلاء، ولعــوا بالعمل بما جاء بــه الدين الحنيــف، ولا يلجأون إلى

الجدل إلا إذا اقتضت الحال ذلك، أو وقع عليهم التحدي.

وعندمــا طلب مــن أهل الجبل هــذا العدد الوفيــر من علماء التفســير، كان الجبل غاصاً بالعلماء، ولكن المشــائخ تشاوروا في الموضوع ! لماذا يرسلون هذا العدد الوفير ؟ إلا يجدون هذا العملاق الذي يقوم مقام مائة بين هؤلاء الأعلام؟

وقــرروا أن يختــاروا مــن بينهــم واحــداً يقــوم مقــام مائــة. واســتعرضوا الأســماء، فاجتمع رأيهــم على اختيــار أبي المنيب، للقيام بهــذه المهمة ... ولما أبلغوه اختيارهــم لم يرهب الموقف، وهو يعلم ما للمعتزلة من صولة في الجدال.

ولم يتهيب التعب وبعد المســافة بين ليبيا وغرب الجزائر. ولم يطلب من القوم أن يجعلوا له مســاعداً يذكره إذا نسى، وينبهه إذا غفل. لقد قبل المهمة دون نقاش، واســتعد للســفر في هدوء واطمئنان، كأنما يسافر للتجارة إلى سوق حرة في بلد مفتوح.

إن القارئ وهو يدرس التاريخ، ويستعرض هذه الحوادث، لتأخذه الحيرة في أيهما أعظم ؟

هذا الشــعب الذي يجمــع على الثقة الكاملة في شــخص واحد، ويتفق على اختيــاره ليقوم مقام مائة من المناضلين ؛ ومن ســوف يناضل هذا الرجل الوحيد الذي تضع الأمة ثقتها فيه، ثم ترسله آلاف الأميال ليقف أمام التحدي ؟ ...

إنه سوف يناضل المعتزلة، أبطال المناظرة، وفرسان الجدال في الأمة الإسلامية كلها.

أم هـذا الرجـل يتقبل ثقـة الأمة فيه، ويسـتعد لخوض هذه المعركة التي يجهل فيها إمكانيات الخصم كل الجهل. وإنما يعرف نفسـه وما أعده لهـذا النزال، لا في هذه الفتـرة القصيرة التي طلـب منه فيها أن يمثل أمة. وإنما منـذ كان يغدو ويروح على ابن درار يغترف من ذلك النبع الفياض ؟

ويتأهـب المفسـر العظيم للكتـاب الكريم للسـفر، ويجتمع برفاقه الثلاثة الذيـن اختيروا بمثل هذه الطريقة لمثل هذه المهام، وليس مع هذا الوفد لجنة لنشـر الدعاية، ولا آلة لتصوير المناظر، ولا خدم لتوفير الراحة، ولا حاشية لإظهار العظمة والهيبة.

ولم يَزَّودوا بأموال للنفقة، ولم تحسب لهم علاوة للمبيت،ولم تفتح بين أيديهم خزائن الدولة.

لقـد طلب إليهـم أن يقومـوا بمهمتهم، وليـس لهم إلا ما تفيض به رحمة الله...

وودعهـم إخوانهم الذين وثقوا بهـم، واختاروهم من بين آلاف العلمـاء يزخر بهـم الوطن الليبي فـي ذلك الحين، ولـم يزودهم بشيء غير دعوات صالحة من قلوب مؤمنة ...

وعندما انفصل الموكب عـن المودعين، طلب إليهم أبو المنيب أن يسـمحوا لـه بخدمتهم أثناء هـذه الرحلـة الطويلة – ولم يكن أبو المنيب أصغرهم سـناً – فسمح له الرفاق الثلاثة بذلك. فأضاف إلى عمله مهمة أخرى شاقة في سفر طويل ...

عندما ينـزل الرفاق للمبيـت، يبادر أبو المنيـب فيعلف الخيل، ثم يجمع الحطب، ويهيئ العشـاء، فإذا اطمـأن إلى راحة رفاقه،

وانتهـوا من صـلاة العشـاء، وأوى الزملاء إلـى مضاجعهم، قام هو فاسـتقبل القبلة، وبدأ الصلاة مسـتفتحاً بالبقرة، فلا يقبل الفجر حتى يكون قد ختم القرآن الكريم، فيصلى مع رفاقه صلاة الفجر ويعد لهم ما تيسر من فطور، ثم يواصلون الرحلة.

وبعد أيام كان أبو المينب يشـتغل بإحـدى المهام، وكان الرفاق الثلاثة يتناقشـون فيما بينهم عن زميلهـم هذا، ولما رجع إليهم قالوا له : إما أن تترك خدمتنا وإما أن تترك هذه الصلاة في الليل، فقال : أما خدمتكم فلا سـبيل لتركهـا، وأما الصلاة : فأرجوا أن تسـمحوا لي بصلاة ركعتين فقـط، ونظر القـوم بعضهم إلى بعـض وظنوا أن أمر صلاة ركعتين امر يسـير لا بأس به، فوافقوه على هـذا الالتماس. وعندمـا جاء موعد صلاته قام فاسـتقبل القبلة واسـتفتح للصلاة بسـورة البقـرة، واسـتمر يتلو كتاب الله حتى ختم سـورة الكهف، فأهوى للركعة الأولى،واسـتفتح للركعة الثانية بسـورة مريم وركع لها عندما ختم سـورة الناس، فما سـلم حتـى انبثـق الفجر، وقام مـع زملائه لصـلاة الفجر. وعند المسـاء وهم يتناولون العشاء الطيب البسيط الذي اعده لهـم، قالوا : ارجع إلى عادتك الأولـى من الصلاة، فإن في الركوع والسجود بعض الراحة.

نظر إليه أحد الزملاء في ظلام الليل – والرياح الجنوبية الهوج في الصحراء تعبث بثيابه وهو قائم يناجى ربه في صلاة خاشعة – فقـال : إن كان لا يدخـل الجنـة إلا من كان مثلـك يا ابن يانس فستصيبك فيها الوحشة.

وكان رحمه الله إلى هذا العلم الواسع، والورع الذي بلغ النهاية، حازماً قوياً في دين الله، لايخشى صاحب سلطان، ولا يسكت عن منكر يرتكب أمام عينيه مهما كان صاحبه، ولا يدع الأمر بالمعروف.

كان بمصر في تجارة له يبيع فيها زيتا، ومر به أعوان السلطان يحملون شخصا وهو يستغيث. مر به وهو يقول : أنا بالله وبالسلطان، فلم يشتغل به، ثم سمعه يقول : أنا بالله وبأهل المروءة، فلم يشتغل به، ثم سمعه يقول : أنا بالله وبالمسلمين، فترك الزيت ووثب إلى الأعوان، فخلص منهم الرجل، ولما نجا الرجل ذهب مع الشرطة إلى السلطان، فقال له السلطان : ما حملك على ما فعلت قال العالم الورع القائم بدين الله : لم يسعني في ديني أن أتركه حين استغاث بالمسلمين. فالتفت السلطان إلى أعوانه وقال لهم : أبمثل هذا تأتونني ؟..

لو لا هذا ومن كان مثله لم تطلع علينا الشمس، فبهم أمهلنا الله !. ومر بإحدى القرى التونسية وكانت تحت حكم الأغالبة في ذلك الحين، فوجد الشرطة يجرون امرأة وهى تستغيث بالله وبالمسلمين، فطلب منهم أن يتركوها، فلم يستجيبوا له، فجرد سيفه وخلص منهم المرأة، وذهب معهم إلى صاحب السلطة، فقال له ما حملك على مافعلت ؟ قال : لما سمعتها تستغيث بالله وبالمسلمين لم أتمالك نفسي، ورأيت أنني لا أوفى بديني إذا لم أخلصها، فنظر إليه صاحب السلطة في إمعان وتفرس، ثم قال : تركناها لله وإيجابا لحقك.

كان بتاهرت عاصمة الإمامة، فمر بمنزل الإمام عبدالوهاب – وكان على الباب متظلم، والباب مغلق، والمتظلم ينتظر، وقد بدا عليه السأم، فأخذ الشيخ يضرب الباب بالحجارة، ويشتم المدينة ومن فيها حتى خرج الإمام ولحيته تقطر ماء، فاعتذر للشيخ بأنه كان في الحمام، ولما سكن الغضب عن الشيخ قال الإمام : لماذا هذا الغضب كله حتى شتمت أهل المدينة وأنا وأنت منهم، فقال الشيخ الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر : إن لم نعمل بموجب الشرع فلا محيد لنا عنها.. إنه لا يحل لمن يتولى أمر المسلمين أن يتغافل عن شؤونهم، فاذا غفل وجب على المسلمين أن ينبهوه إلى ذلك، فإذا لم يفعلوا، استووا في المعصية.

تأمل أيها القارىء الكريم هذه السيرة العطرة : سيرة الرعاة وسيرة الرعية وقد عظمة هذا الإمام الذي يدين له بالطاعة ثلاثة أقطار كبرى، تنبسط اليوم عليها ثلاث دول، فيقف ببابه مؤمن من سائر المؤمنين يقذفه بالحجارة والشتائم لأنه تأخر فلم يفتح بابه دقائق معدودة ليسمع شكوى متظلم، قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة، فلا يزيد هذا الإمام العظيم على أن يعتذر بأنه مشغول بعمل شرعي لا يجوز تأخيره لحظة.

وقدر عظمة هذا المؤمن، الذي يرد رجلا يريد أن يرفع شكوى، فلم يفتح له باب الأمير فيتضاءل أمام عينه هذا الإمام الذي يمتد سلطانه من مصر إلى مراكش بما له من قوة ومركز لأنه لم يبادر إلى إنصاف المظلوم، وإعطاء الحق لصاحبه، واشتغل عنه بأمر خاص له، ثم يهجم على الباب يكاد يحطمه، وعلى الإمام يسمعه قوارص العذل واللوم.

وقــارن أيها القــارئ الكريم هــذه الحالة بصور مؤلــة تجد فيها الآلاف مــن الناس تضيــع حقوقهم، وهم يتزاحمــون على أبواب المصالح، ومداخل الإدارات، ودور القضاء.

لأن هــذه الحقوق وضعت في أيدي أقــزام مهازيل، ليس له من الخلق أو الدين أو الشهامة ما يحملهم على فصل تلك المشاكل، وإراحة الناس من هذا النصب المتواصل.

وعندمــا يجد المســلمون رجالا مــن الشــعب لا يخافون في الله لومــة لائــم، ولا يرهبــون في الحق ســطوة حاكــم، وعندما يجد المســلمون حكاما يقدرون المســؤولية التي تحملوها للأمة، ويخضعون لسلطان الحق، ولو تعلق هذا الحق بذواتهم، ويسارعون إلى تصريف الأعمال التي انيطت بهم في أسرع وقت ... عندما يجد المســلمون هذا الفرد من الشعب، وهذا الفرد من ولاة الأمر ؛ حينئذ يعود إلى الأمة المســلمة ما فقدته من عزة، ويحقق الله لهــم مــا وعدهم به، فيكونــون خير أمة أخرجــت للناس ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله ؛ فلا يحســبون لغيره حسابا.

وإلــى هذه القوة في دين الله، والشــدة في حقوق الناس، كان رحمه الله جم التواضع، ســمح النفس، كريم الخلق ؛ ولعل قيامه بخدمة زملائه أثناء رحلته الطويلة إحدى الشواهد على التواضع وكرم النفس، وسماحة الخلق.

أدب يومــاً ثلاثة من الجنــاة، فعضبوا من إقامــة الحق عليهم، فدخلوا عليه منزله ليلا، وضربوه ضربا مبرحاً حتى أضعفوه، فلم

يطق إتيان المســجد. وتخلــف العالم المؤمــن لأول مرة عن صلاة الجماعــة وهــو حاضر في البلــد، وعرف المســلمون الذين يعرفون الشــيخ أنه لم يحبسه عن المسجد إلا أمر كبير، فزاروه في بيته، وســألوه عن أمره، فأخبرهم بما فعل به، وعندما تحدثوا في وجوب معاقبــة الجناة عن هذا الجــرم الفظيع، منعهم مــن ذلك، وتنازل عن حقه خوفا من أن يكون انتصف لنفســه، فترك القوم الذين اعتــدوا عليه فــي عقر داره فذهبوا طلقاء – ولــو أن عدل الله لم يمهلهم – فنالوا جزاءهم على غير يد هذا المســلم القوي في أمر الله، الضعيف في أمر نفسه.

وكان إلى هــذا الدين القويم والخلق الكــريم كثير العبادة،ولعل صلاتــه في رحلتــه الطويلــة تكون إحــدى الشــواهد على حبه للعبادة، والاتصال بربه.

يذهب إلى " الجزيرة " وهى قرية على قمة شــامخة في الجبل، ضاربة فــي الهواء معزولة عن بقية الجبل بخندق عميق، فيعتزل هنالــك للعبادة أياماً طويلة، ومكث مرة بهذه الجزيرة أربعين يوما، وكان لــم يأخذ معه زاداً ولا طعاما، فذهبت إليه زوجته لتتفقده، وترى حاله، فوجدته مشرق الوجه، يترقرق الدم في وجنتيه، وتبدو العافية على مخايله، وعندما وصل وقت الأكل، مال إلى أعشاب الأرض يــأكل منها حتى اكتفى، فقالت لــه الزوجة المحبة : أبهذا عشــت طول هذه المدة ؟ فأجاب الشــيخ الزاهــد العابد قائلا ؟" نقــي قلبك، وافتحى يديك، وأغلقــى فاك يجعل لك الله كل عود طعاما ! "

إنه أحد أولئك الناس الذين يندر وجودهم في التاريخ، لقد عاش حياة حافلة بالعمل الصالح ! العمل الصالح لنفسه، والعمل الصالح لأمته، والعمل الصالح لدولته، وحسبك أن تعرف أن قسم حياته أربعة أقسام : سنة يقوم فيها بالتجارة ليكسب ما ينفقه من الرزق الحلال في مدى ثلاث سنوات، ويزور فيها الإخوان المنتشرين ما بين الغرب ومصر، فقد يذهب بتجارته إلى مصر، وقد يذهب منها إلى الجزائر، وفي هذه الزيارات يغشى المجامع العلمية، ويؤم المساجد، يلقي دروس الوعظ والإرشاد، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحارب البدع التي يبثها أدعياء العلم والظلم الذي يرتكبه أصحاب الحكم ... ويَقْبَس ويقتبس الهدى والصلاح : ويرتحل في السنة الأخرى إلى غدامس، فيقيم عند أستاذه العلامة ابن درار الغدامسي ؛ يزداد علما ويواصل دراسته بعزيمة لا تعرف الخور أو الضعف، ويقيم سنة في مشاهد الجبل، منقطعا لعبادة ربه، خالصاً لمحاسبة نفسه، مبتعداً عن شئون الدينا والناس : اما في السنة الرابعة، فيستعد فيها لزيارة البقاع المقدسة، والاقتباس من روح الإيمان والطهر التي خلقها محمد صلى الله عليه وسلم في منازل الوحي، ومنشأ الإسلام ... ولم يخرق هذا النظام الذي وضعه لنفسه منذ وضعه حتى لحق بربه.

لم يبق لنا من حديث على هذا الرجل العظيم إلا إشارة عابرة إلى كفاحه في الميدان العلمي. ورغم هذا الترتيب الي وضعه لحياته، والذي كان يكثر فيه من الغياب ؛ استطاع أن يكون طبقة ممتازة من الطلاب حملوا مشعل الثقافة والمعرفة من بعده، وكان

يشرف الواحد منهم أن يقال فيه : أخذ العلم عن ابن يانس، أما النقطة الثانية، وهى مفهومة من سياق الحديث فكفاحه القوي العنيف للانحرافات التي ترد على أيدى المبتدعين كما فعل مع المعتزلة، أو الإنحرافات العملية التي تأتي عن طريق الحكام كما فعل في مصر وتونس والجزائر : فهو أحد أولئك العلماء الأعلام، الذين كافحوا الإنحراف عن دين الله بالطريقتين الوقائية والعلاجية، وإن كانت آثاره في الميدان العلاجي أوفر وأظهر.

مَهْدي النُّفُوسي الوِيغَوي

بطل من الأبطال الأربعة، الذين وثقت بهم الأمة، فاختارتهم للقيام بمهام طلب لها أربعمائة.

وأسند إلى هذا البطل العملاق مهمة مائة عالم من علماء الكلام، ثم طلب إلى أن يرحّل من " ويغو " – هذه القرية التي لا تزال أطلالها شاهدة على عظمتها في ظاهر الحرابة – إلى تاهرت للمناظرة والجدال ... جدال المعتزلة : أتباع واصل بن عطاء، أولئك الناس الذين حذقوا فن الجدال وبرعوا فيه، وبزوا فيه الأقران، ولا سيما حين يكون موضوع المناظرة والجدال متعلقاً بعلم الكلام والفلسفة الإلهية.

حتى كان علماء غيرهم من الفرق يتحاشون التصادم معهم، ويخشون الاشتباك بهم.

ولما اتفق رأي المشائخ على إسناد هذه المهمة.. مهمة مناظرة المعتزلة في قضايا التوحيد وعلم الكلام إلى الشيخ مهدي الويغوي، وأخبروه بما اتفقوا على، تقبله برضاً واستبشار، واستعد للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه، وأخذ زاده وفرسه واتجه مع الرفاق الثلاثة إلى تاهرت، إلى حيث ينتظر فرسان الكلام ...

وبلغ الشيخ العالم المتكلم عاصمة الإمامة في الجزائر، وعرف الإمام أنه الرجل الذي اختارته أمته ليقوم مقام مائة من علماء

الكلام، ليرد على أصحاب البدع والأهواء بدعهم وضلالاتهم.

وكان الإمام عبدالوهاب من أفذاذ العلماء في كل فروع الثقافة لذلك العصر، وكثيراً ما يتعرض لتحدي المعتزلة ولددهم في الخصومة، فيناقشهم ويناقشونه، وقد يضيق الخناق على أحدهم بحجة باهرة، وقد يضيق عليه أحدهم الخناق بشبهة خفية.. فلما اجتمع مع العلامة النفوسي، طرح عليه مواضيع النقاش، وعرض عليه الأسئلة والأجوبة التي كان يتلقاها من المعتزلة أو يرد بها عليهم، وكان العلامة النفوسي الوبغوي لا يلبث أن يقول للإمام : هذا سفسط المعتزلي وهنا زاغ منك. وهكذا كان يضع يده على نقط الضعف عند الإمام، أو عند المعتزلي.

وبعد هذا العرض، اطمأن الإمام ووثق بصاحبه،وضمن لنفسه النصر في هذه المعركة الكلامية الحامية الوطيس.

خرج العلامة الويغوى يوماً، ولم يرجع إلا بعد هون من الليل، فسأله الإمام وأصحابه عن سبب هذا التأخر، فقال لهم : لقد اجتمعت اليوم بتسعين عالماً من علماء المعتزلة، وفتحوا معي أبواب الجدال، فأفحمهم الله جميعاً، وأوضح الحق ونصره. وأخبروه أن عشاءه موضوع في حجرة مجاورة، ودخل الحجرة التي وضع فيها العشاء، ووجد إناء مغطي، فنزع عنه الغطاء، ووضع يده باسم الله، فوجد طعاماً أكل منه حتى أكتفى، ثم قال لهم : يظهر أن عشاءكم لم ينضج. فضحك القوم لأن ما حسبه الشيخ الويغوى عشاء غير ناضج لم يكن في الواقع غير عجين

أعد ليتخذ منه الخبز لفطور الصباح. أما عشاء الشيخ فقد بقى في زاوية أخرى من البيت لم يهتد إليها. ورد على ضحكهم قائلا : إني أحمد الله تعالى على ثلاث : أقضي بقليل من النوم غرضي، وأيطعام أسد به جوعتى، ولا أخشى مخالفاً يدحض حجتى

وإنه لمن نافلة القول أن أقص حكاية التاريخ، وأصف للقارىء الكريم موقف هذا الشيخ مع مشاغبي المعتزلة، وطريقته في إلزامهم الحجة، وإبطال مالبسوا به من الشبه، فإن الباطل لا يصمد للحق إلا قليلا، على أن مظهر الانتصار أو عدم الانتصار في الجدل لا قيمة له في نظر المؤمن المخلص، إن الانتصار في الجدال مظهر من المظاهر التي يفرح لها طلاب الزهو والفخفخة، أما أصحاب الحقيقة، أصحاب الإيمان والعلم، فإنما يسرهم منها نتائجها إذا اهتدى بها قوم فرجعوا إلى الصواب بعد أن تخطفتهم مهاوي الضلال.

أما القيمة الشخصية للرجل فهي في ذلك الثوب الفضفاض من العلم والإيمان والتقوى،الذي يلازم المرء في جميع أحواله.

وأنا كما قلت في بعض الفصول السابقة : إنما يهمني في هذه الحلقات أن أكشف عن الصور الرائعة من سيرة أبطال هذا المذهب الذي حورب من ناس لم يفهموا الإسلام، ولم يعملوا به، من ناس يسهل لديهم أن يصفوا أهل هذا المذهب بأنهم خوارج، كما يسهل لديهم أن يعملوا عمل الخوارج، وفي الحين الذي يعف فيه الإباضية العفة الكاملة يستحل أولئك الناس

أموال المسلمين ودماءهم بالطريقة العملية، فما سنحت لهم فرصة لابتزاز الأموال أو قتل الرجال إلا ارتكبوها، وسواء كانت هذه الدماء أو الأموال لمخالفيهم في المذهب، أو الرأي أو كانت لموافقيهم فيها.

وإنك لتجد آلاف المواقف من هذا النوع، وإن شئت فارجع إلى التاريخ، فسوف تجد إخوة وأبناء إخوة يقتتلون من أجل المال أو السلطان، بل إنك لتجد أبناء يسرقون خزائن آبائهم، أو يقتلونهم، لأنهم يتعجلون الوصول إلى كراسي الحكم، إلى ما هنالك من أعمال يبرأ منها الإسلام، الإسلام الذي يحرم الدماء والأموال :] إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام [.

كنت أتحدث عن مهدي النُّفوسي الويغوي : هذا الرجل الذي اختير ليقوم مقام مائة عالم لجدال المعتزلة، إنه إلى هذه الثقة التي حصل عليها من الأمة، وإلى هذا المقام الذي تبواه في قلب إمامه بعد ما عرف علمه وذكاءه وعبقريته، وإلى انتصاره المشهود في مناظرة تكاد تكون حدثاً عالمياً في ذلك الحين. إنه إلى كل ذلك متواضع كريم، سأله الإمام بعد أن امتلأ إعجاباً برجال الوفد في علمهم وخلقهم وشجاعتهم حتى ظن أنه لا يوجد لهؤلاء الرجال مثال : هل تركتم في الجبل من هو مثلكم، فأجاب العلامة المهدي : تركنا من هو خير منا تركنا أبا عبيدة عبدالحميد الجناوني ...

وقد لمس الإمام صدق هذا الرجل وصراحته فيما بعد، حين زار جبل نفوسة، وأهمل بعض رفاقه دوابهم فأكلت من زرع الناس،

فجاءه أبو عبيدة، الشيخ العالم الذي ليس له يد في الحكم، وقابله بقوة الرجل الذي رأى منكراً فصمم على تغييره بقوة المؤمن المعتز بإيمانه، إنه لا يرى في الإمام إلا إنساناً بشراً بسيطاً ... ارتكب خطأ وجب عليه أن يرجع عنه ... أما مهابة الإمام وعظمة السلطان، وحق الضيف، أما تلك الأشياء كلها، فلا قيمة لها في نظر المؤمن القوي في دين الله ... إن الحق أحق أن يتبع ... وما الإمام إلا فرد من أفراد الأمة، له مالها وعليه فوق ما عليها، عليه عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، ورعاية أمورها، وتفقد شؤونها، والسهر على مصالحها ...

وتذكر الإمام العظيم بهذه المناسبة جواب الوفد فقال : صدقوا، لقد تركوا من هو مثلهم أو خير منهم ...

عاش هذا العالم المؤمن في كفاح مستمر، يحارب البدع التي أخذت تنتشر بحقائق الإيمان، ويناضل السفسطة الكلامية بقوة البرهان، ويكافح الجهل بالتعليم الصحيح،والتربية التي وضع أسسها الإسلام ...

وعندما كان الإمام عبد الوهاب يحاصر طرابلس العاصمة وهي تحت حكم الأغالبة بسبب الفواحش التي ارتكبها جندهم، كان مهدي النفوسي الويغوي من خيرة حملة السلاح للدفاع عن الحق ... وذات يوم كان هذا العالم مستغرقاً في مناجاة ربه، منفرداً على ساحل البحر، فعبر إليه جند الأغالبة وقتلوه واحتزوا رأسه، ثم وضعوه على السور وهم يتضاحكون ويعبثون !! ... رحم الله تلك النفس المؤمنة.

أبو الحسن الأبدلاني

أبو الحسن هو العضو الرابع من أعضاء الوفد الذي بعث إلى تاهرت ... وثقت فيه الأمة فاختارته ليقوم مقام فقيه لجدال المعتزلة فيما يتعلق بأصول الفقه، وعلم الحلال والحرام، وإنها لمرتبة سامقة، أن يحصل الإنسان على ثقة أمة كاملة، وأن تختاره هذه الأمة نفسها كي يقوم مقام مائة من الأعلام، الذين يدفعون إلى الميدان، فيرفعون رأية الحق، ويذودون عن دين الله عدوان المبتدعين، وعتاد الباغين، وقد حقق للأمة ثقتها فيه، وقام بالعبء الذي ألقى عليه.

قال أبو العباس حين تحدث عن هذا العلامة العملاق. " كان واسطة العقد، وإنسان العين :. تعلم العلوم، وعمل بموجبها، وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها ".

لقد تعلم أبو الحسن العلم، كما شهد أبو العباس، وتعلمُّ العلم أمر ميسور لكل طالب. ولكن العمل بموجب العلم هو الميدان الذي تتفاوت فيه الأبطال، وتقاس به معايير الرجال.

كان هذا العالم العامل – إلى ما يملك من غزارة المعرفة، وانفساح الثقافة، والعزوف عن أمر الدنيا، ومجاهدة النفس.. بطلا من أبطال الميدان، يثبت في المعارك ثبات الطود ويناضل العدو نضال من يرى باب الجنة مفتوحاً أمامه ليس بينه وبين

ولوجه إلا الاستشهاد في حومة الوغى من تلك الموقعة.

لما التقت جنود العباس بن أيوب – وكان أبو الحسن أحد الأبطال فيه –

بجنود خَلَف في " فاغيس " بين " تغرمين وجادو ". وكان جيش خلف كثيفا، كثير العدد وافر العدة، فجاء رجل من جيش العباس إلى أبي مرداس وقال له : إنى أخشى على جندنا من كثرة جند عدونا. فأجاب أبو مرداس العالم البطل : لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني.

أي والله ! إنها شهادة من رجل يعرف قيم الرجال الصادقين، ومواقفهم الثابتة عندما تزل الأقدام، وتخف الأحلام.. ولكن الرجل لم يقنع بهذا الجواب ؛ إنه يرى بعينيه كثرة جيش العدو وضآلة جيشهم بالنسبة إليه.

وماذا عساها تغني البطولة مع الكثرة، وذهب إلى أبي الحسن الأبدلاني يعرض عليه مخاوفه، ويقص عليه ما قصه على زميله أبي مرداس، فإذا بجواب أبي الحسن يبعث على الدهشة والاستغراب. قال أبو الحسن : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس !!

وعجب الرجل من توافق الخواطر، اتحاد المشاعر، وأيقن أن جيشاً ضم بين صفوفه أبا الحسن الأبدلاني وأبا مرداس السدراتي لا يمكن أن ينهزم.

نعم إنه يكفيأن يكون في الجيش بطل مثل أبي الحسن، أو أبي مرداس في ثقتهما بنصر الله، وإيمانهما بالحق فيضمن النصر.

والتاريخ الإسلامي منذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم غزواته أمثلة رائعة للصورة التي ترسمها هذه القصة القصيرة. إن كثرة العدد لا تغني في الحرب، وليست الأعداد ولا السواعد هي التي تناضل إذا جد الجد، ولكنه الإيمان بعمق الرسالة، والرغبة في الحصول على الشهادة، والحزم في محاربة الظلم، والصمود أمام جبروت العدوان، هذه العقائد والمثل هي التي تقاتل الأعداء وتقهر.

ولن يصاب المسلمون من قلة، ولكنهم يصابون من ضعف العقيدة وسوء النية، والثقة بغير الله، وتفرق الكلمة، وابتغاء عرض الدنيا من حياة منعمة ليست حافلة بالخير، ومال كثير لا يعرفون مصدره، ولا يهتمون له ؛ ورغبة ملحة في عمر طويل لا يزينه عمل صالح.

أبو مرَداس مهاصر السدراتي

بطل آخر من أولئك الأبطال الذين بلغوا من العلم درجة تتقاصر دونها مدارك الأقران، على أن بلوغ درجة سامقة من العلم غاية يسيرة يستطيع أن يدركها كثير من الناس، بشئ من الجد والمثابرة ؛ ولكن العبر أن يعرف الإنسان حقيقة هذا العلم، وأن يعمل بما تدعو إليه تلك الحقيقة، وأن يكون مخلصاً في ذلك، العمل وفي هذا الميدان متعثر خطا أغلب الفرسان، ولا يصمد إلا القليل ممن ملك زمام نفسه، وغلب دواعي شهوته، وأدرك أنه ما خلق إلا ليجتاز هذه الرحلة – مرحلة الحياة – في سلام، ولن يكون السلام إلا لمؤمن يسجيب خالق الإنسان ليمر معه الإنسان في سلامة، فإذا انحرف عنه إلى يمين أو يسار وقع في مهاو ليس لها قرار.

كان أبو مرداس من العلماء الذين فهموا أسرار شريعة الله واتضح لهم هذا التخطيط الذي وضعته إرادة الله لسلامة البشر، فألزم نفسه السلوك فيه. وقصر أعماله على مايدعو إليه دين الله، فيه يعمل، وبه يترك ؛ ثم هو لا يحسب لغير الله حساباً ...

جند نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يلطف من عنف ذوي السلطان في استخراج الحق، ويقف لهم دون أن

يصدر منهم باطل. لا يبتعد عن مجالس الحكم خوفاً من أن يقع ظلم، وكان أصحاب السلطان يعرفون منه هذا، فكانوا لا يصدرون إلا عن رضاه.

لزم الإمام عبدالوهاب مدة بقائه في ليبيا،وضيق عليه، وكان يحاسبه حساب المؤمن الحريص على دماء المسلمين وأموالهم، ومع ما اشتهر به الإمام عبدالوهاب من العلم والعدل، فقد كان يجد من أبي مرداس ناقداً لا يسكت ولا يلين حتى قال الإمام : " أحفظ أربعة وعشرين وجهاً تحل بها الدماء، ولم يحفظ أبو مرداس إلا أربعة وشدد على فيها ".

وهذه القصة على قصرها تبين لنا أن سلطان المؤمن العالم أقوى من سلطان المؤمن الحاكم، فقد عرف الإمام الحاكم أربعة وعشرين وجهاً تحل بها الدماء، ولكن أبا مرداس لا يعترف بها ولا يقرها، ولا يسمح للإمام بإجراء الأحكام على مقتضاها. ويستسلم الحاكم للعالم، وكثيراً ما يجد منه معارضة عنيفة، حتى في هذه الوجوه التي يعرفها أبو مرداس.

قيل له : إن سبعين وجهاً تحل بها دماء الموحدين فسأل في تحد : ما هي، فعدوا له : أولاً، وثانياً، وثالثاً، فقال في استنكار : من أين ؟ ! من أين ؟! ولم يتركهم يتجاوزن الوجه الثالث ...

إن وظيفة العالم المؤمن في المجتمع المسلم أن يقف بجانب الحاكم ليسدد خطاه، ويوضح له طريق السير، ولا يدع مباحث الفقهاء الفسيحة في وجوه الأحكام تنفلت بسلطة الحاكم إلى سهولة التنفيذ. وهكذا كان أبو مرداس رحمه الله، كان يقف

موقف القوي الذي يكبح أوامر الحكام خوفاً من أن تجمع بها السلطة، أو يجمح بها العلم، ولعل قارئاً من القراء الكرام يقول : هذه السلطة قد تجمع بصاحبها فتخرج به عن الحق، فكيف يجمح العلم ؟

والجواب على هذا التساؤل واضح في القصة الماضية لهذين الرجلين، فإن معرفة الإمام لأربعة وعشرين وجهاً من الوجوه التي تحل بها دماء أهل القبلة، يدل على اتساع في العلم ؛ وإجراء الأحكام على هذه الأربعة والعشرين وجهاً قد يكون جموحاً من العلم، ولذلك فقد كان أبو مرداس يكبح إرادة الإمام أن يجري أحكامه على جميع الوجوه التي يعرفها، وأبو مرداس نفسه لا يجهل ما يعرفه الإمام من هذه الوجوه، ولكنه لا يريد أن تراق دماء المسلمين على إلتماس الأوجه التي تحل بها الدماء خوفاً من طغيان السلطان، على أن هناك فروقاً دقيقة يلحظها المدققون من العلماء، ولذلك فهم يعتبرون تلك الملاحظات كل اعتبار، وأبو مرداس حين يعترف بأن بعض الأوجه التي تحل بها الدماء فهو يعنى أن إراقة الدماء لإقامة الحدود التي أمر الله بها، يجب على الإمام أن ينفذها، ولكنه يجب أن لا يلتفت إلى تلك الوجوه التي تحل بها الدماء، وليس فيها إقامة لحدود الله، وليس في تركها إخلال بدين الله.

وفي هذا المقام زلت الأقلام، وجمح العلم بالحكام، فكانوا يجدون من ضعاف العلماء فتاوي باستحلال الدم، واستغلوا تلك الفتاوي أبشع استغلال، فأضروا بالأمة، وزرعوا فيها الفتنة، وأشعلوا بين أفرادها وطوائفها نار البغضاء ...

وإنه ليحق لك أيها القارئ الكريم أن تعجب بخلق الرجلين العظيمين، هذا الرجل الذي يشمل سلطانه ربع قارة ثم لا يصدر أمراً إلا برأي العلماء الصالحين، ولا ينفذ حكما إلا إذا ارتضاه خيار المسلمين.

وهذا الرجل العالم الذي يقف في عزة المؤمن ليحمل إمام المسلمين أن يجرى أحكامه على ما يختاره علماء الأمة من أقوال الفقه، وقوانين الشريعة، وأن يترك جانبا تلك المباحث الفسيحة في علم قانون الشريعة، التي قد تؤدي به إلى إراقة دم لا تجب إراقته – وأنا حين أسوق كلمة الوجوب في هذا السياق أعني معناها الحرفي – فإن أبا مرداس وأضرابه يريدون من حاكم المسلمين أن يريق الدماء حين تكون إراقة هذه الدماء واجبا شرعيا لا يجوز التهاون فيه.

ولكنهم لا يسمحون له بإراقة الدماء حين لا تكون إراقتها إقامة لحد الله، وواجبا من واجبات الشرع، ولو كانت إراقة هذه الدماء مباحة بما ارتكب صاحبها.

صحب أبو مرداس الإمام عبدالوهاب سبع سنوات حين إقامته " بميرى " في جبل نفوسه، ولما رجع إلى مركز حكمه في تاهرت، لزم عماله من بعده، فصحب أيوب بن العباس، وأبا عبيدة عبدالحميد، والعباس بن أيوب، وهو في جميع ذلك يقف كصمام الأمان من صاحب السلطة، يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، ويسدد خطاه، ويزوده بالنصيحة الصادقة، والحكم الراجح، من قوانين الشريعة.

وكانت كلمتـه دائما أقوى من كلمة الحاكـم وحكمه، وأنفذ من حكمهم.

ولـم يكـن هـؤلاء الذيـن ذكرتهـم بالضعـاف، ولا المهازيل، فتعطغـى عليهم شـخصيات أخرى ؛ إنهم قمم شـامخة من العلـم والعمـل والقوة في الحق.فظهور شـخصية هـذا الرجل معهم دليل على العبقرية والنبوغ ...

صحب في أواخـر أيامه العامل الحازم القوي العباس بن أيوب، وقد شاخ حينئذ أبو مرداس وهرم، ولكنه لا يفارق الجيش حتى في هذه السـن المتأخرة، ولا يتردد في عمل الخير وإظهار الحق، ومراعاة المصلحـة العامة، وكان الكبر قد أحنى هامته على قصره، فكان يسـير إمام جيوش العباس بن أيوب، وهو يجر سيفه لينطلق إلى الكفـاح، كفاح المعتدين البغاة من النـكار، وعندما ينهزم أولئك المعتدون ويرتفع لواء الحق، يصيح أبو مرداس الذي لا ينسـى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي ظرف من ظروف الحياة كأنه هو قائد الجيش !

قفوا أيها الأبطال !.. لاتتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح.. ولا تستحلوا مال موحد !

ولكـن أحد الجند يجيبـه : بل لا نتركهم حتـى نخرجهم من حوزتنـا، ويعرف أبو مراداس أن في رأي الجندي حقا وحزماء، فيذعن للحق، ويستجيب للحزم

لقـد كان العباس في سـن أولاد أبـي مرداس – لـو رزق أولاداً – فـكان يجله كثيـرا، ويحترمه، ويقف عند رأيـه، ولا يقدم على

عمل إلا بمشورته ورضاه.

كان أبو مرداس عالما عاملا، ومؤمنا عميق الإيمان، وقويا في دين الله، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وكان كريما كرم المؤمنين الذين يعرفون حقيقة الدنيا، ويعرفون أن المال إنما هو مال الله، يأخذ منه صاحبه بقدر الحاجة لينفق باقيه في الوجوه التي بينها الشـارع الحكيم.

ولذلك فهو لا يتأثل مـالا، ولا يحتفظ به، ولكنه ينفقه على الفقراء والمساكين، ولا سيما في سنوات الجدب والجفاف.

وقد يبلغ به الحال إلى أن ينفذ منه المال، فلا يستكبر أن ينفق مما يقتات به، سـواء كان ذلك مـن بعض الثمار المجففة كالتين، أو بما يأخذه من أعشاب من الأرض ... وهو إلى هذا الكرم والمطبوع. يعيـش في عصره، ويعـرف أحوال الناس في وطنـه، فكان يبعث بعطاياه وصدقاته إلى من يستحقها من الفقراء، الذين يسترون ماهـم عليه مـن خصاصة، حتى يحسـبهم النـاس أغنياء من التعفـف، كما كان يعرف ما يتعـرض له العمال والخدم من جوع وإهمال، فكان يعترض طرقهم في غدوهم أو رواحهم، فيعطيهم ما أعده لهم من طعام، وكثيراً ما يكون هذا الطعام سـويقا، أو " بَسيِسة " أو ما أشبه ذلك من الطعام الجاهز المستعجل، الذي يسهل إعداده ! ...

وكان أبـو مـرداس رغـم كل ذلك، ورغـم ملازمته لـولاة أمور المسـلمين – يأمرهم وينهاهـم – كثير العبـادة، موصول القلب بالله ؛ وكان يقول : " لولا أمور الإسـلام ما أجاوز هذا الشعب إلى

هذا ".

ومع هذه الحركة الدائبة، والكفاح المتواصل في ميادين القتال، أو مواطن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند مجالس الحكام، ومع تفقد المسلمين ومعرفة أحوالهم، ومعالجة مشاكلهم، ووصلهم بما تقدر عليه يداه، مع كل ذلك، فقد قال المشائخ الذين زاروا الجبل من المشرق : " أبو مرداس يقول : نفسي نفسي كالغزالة، والعباس نعم الفتى. وابو زكرياء هو الجبل، والجبل هو أبو زكرياء"

فقد عاش ما عاش غاضَّ البصر، لين العريكة، سهل الخلق، خفيض الصوت، ما لم تنتهك حرمة من حرم الله فيثور، ويدل لهذا ما قصه المؤرخون : أنه في أواخر أيامه وقد خرج الناس لاستقبال الربيع، ولم يبق أحد بمدينة " تبرست " فرفع بصره يتأمل المدينة ويرى الشوارع الممتدة إلى جميع النواحي، والأبنية المرتفعة الضاربة في الهواء، فقال متعجباً : متى حدثت هذه المباني ؟..كأنما غاب عن المدينة سنوات طوالا، والواقع أن العالم الكبير، قد غاب عن المدينة سنوات طوالا، غياباً جسمياً لا معنوياً، فهو يعرف كل دقيق وجليل من أحوال المدينة وأحوال أهلها، ولكنه في نفس الوقت لا يعرف من شوارعها إلا الشارع الذي يربط بين بيته والمسجد، أو الشارع الذي يربط بيته بميدان الكفاح، أي كفاح ومن أي نوع كان ...

ولقد كان دقيقا في محاسبة نفسه على جميع أعماله، فلا يصدر إلا عما يريده منه حكم الله، ولا يسمح لنفسه بتجاوز الحق

حتى في بسائط الأمور... استعار يوماً أتانا يركب عليها لبعض شأنه إلى إحدى القرى المجاورة، فمد إليه أحد جيرانه صرة دراهم يطلب منه إيصالها إلى أحد الناس في القرية التي يقصدها، فاعتذر الشيخ عن القيام بهذه المهمة : بأنه حين استعار الأتان لم يستأذن صاحبها في حمل شئ آخر عليها، فصاح صاحب الدراهم متعجباً من امتناع الشيخ واعتذاره، فقال الشيخ : " صار العلم عجباً ".

وقال له يوماً رجل من أبديلان : يا كافر : فقال له الشيخ : " سميتني باسم هربت منه زماناً ". وذهب مرة يحرث على بقرة له فمر بقرية " إكراين " والناس مسنتون، قد أحاط بهم القحط، وذهب الجفاف بما ادخروه، وأضر بهم الجوع، فلما رأى ما بهم من الحاجة تصدق عليهم بالبذر، وذبح البقرة ففرقها عليهم، وفرق الجلد أيضا، لكنه احتفظ بقطعة منه، فلما رجع إلى قريته، بادرت إليه زوجته الصالحة زررزت تسأله : أين البقرة ؟ وأين حرثت ؟ ... فقال لها : حرثت حرثاً استغني عن المطر، ولا تصيبه آفة ؛ ثم أخبرها بما فعل، فقالت له : لم لم تردد علينا من بقرتنا إلا هذا ؟ فقال لها : لنا بقرتنا إلا هذا ؟

وذهب مرة ليحرث فداناً من فدادينه، فجاز عليه رجل ممن يعرف أخلاق الشيخ، وتغلب عليه الدعابة، فقال للشيخ : إن الفدان لي فاخرج منه، فخرج الشيخ وترك الفدان، فأدركه الرجل ببعض الطريق، وقال له : إن البقرة التي تقودها بقرتي فاتركها لي، فتركها ورجع إلى البيت دون حرث أو بقرة، فلما كان عند مدخل البيت أدركه الرجل وقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ إن هذا المنزل

منزلي فصاح الشيخ بزوجته قائلا : ناوليني سلاحي يازززت ! فقال الرجل : إنما أنا أمزح، وليس لي في الفدان ولا في البقرة حق، فخذ بقرتك، وارجع إلى فدانك، فقال الشيخ : ما بعثك الله إلا وقد علم في الفدان والبقرة شيئاً، فتركها ورفع يده عنها منذ ذلك اليوم.

وبمثل هذا الخلق السمح الكريم، وهذا الدين العفيف القويم، وصل أبو مرداس واضرا به إلى ما وصلوا إليه من الرتب العالية ؛ ورتب الحقيقة الخالدة، لا رتب الدنيا الفانية.

ولعله من المناسب أن أختم هذا الفصل بما ورد في السير : " أن مشائخ نفوسة يقبلون على الإمام، فيجلسون إليه حين كان بالجبل، فإذا قدم أبو مرداس قام إليه – وكان قصيراً – فقال رجل من أهل المشرق لم يعظم الإمام هذا ؟ فقال حين سمعهم، كيف لا أجل من جله الملائكة ".

أما أبو الربيع فقد قال حين تحدث عنه : " أبو مرداس رجل حازم، ممارس للأمور، ورع نبيه، وجيه، حاذق، عاقل فطن، مجتهد رحيم بالضعفاء، شديد على الفجار، ذليل على المؤمنين ؛ لا تأخذه في الله لومة لائم، يؤثر الحق والصدق ".

أبو زكريَّا التَّوكيتي

شخصية من الشخصيات التي تجمع صفات العظمة، فتفرض محبتها واحترامها على الجميع.

بلغ مرتبة لم يبلغها صاحب جاه بالسلطة، أو صاحب معرفة بالعلم، أو صاحب كرم بالإنفاق، أو صاحب زهد بالعبادة، أو صاحب شجاعة بالإقدام، إن هذه الصفات جميعا ولا شك عظيمة، ولكنها لا تغني شيئا إذا أعوزتها روح قوية، ذكية، عميقة ؛ لتكسو صاحب هذه الصفات ثوب العظمة، الذي يحترمه الناس ويحبونه، مجبرين بقوة الشخصية.

وكان أبو زكرياء التوكيتي يملك هذه الروح القوية فوق هذه الصفات الكريمة، فجعل منه ذلك رجلا منفرداً بالعظمة والمهابة، والحب في بلد مفعم بالعظماء والأعلام.

طلب الناس إلى الإمام : أن يولي عليهم أبا عبيدة عبدالحميد، فاعتذر بالضعف، فبعث الإمام بقطع عذره، ويسد السبل أمام تهربه، فقال : إن كان ضعيف البدن فإن الله يقويه إذا تولى أمور المسلمين، وإن كان ضعيف المال ففي بيت المال ما يسعه ويسع غيره، وإن كان ضعيفا في العلم فعليه بأبي زكرياء التوكيتي.

ووفد من أهل المشرق وفد يزور الإخوان، ويتفقد أحوال الناس، فزار الجبل وزار بقية المملكة الليبية، ومر بالجنوب التونسي، ثم زار

تاهرت مركز الإمامة، ولما سئل عن رأيه في جبل نفوسه قال : " الجبل هو أبو زكريا وأبو زكرياء هو الجبل، وأما أبو مرداس فَكَالْغَزَالَةِ : نفسي، نفسي. وأما العباس ففتى مقرعي. " – أي صاحب نجدة وشدة. واختار الوفد من تاهرت الإمام ووزيره مزور بن عمران.

لقد كان مقام أبي زكريا أرفع من المنصب، وأعظم من أي صفة يتصف بها رجل لو عمل بعمله، ولذلك لم يجد هذا الوفد المتشدد في اختيار الرجال إلا أن يصفه بأنه هو الجبل، وأن الجبل هو أبو زكرياء ... إنه مقام لم يبلغه أبو مرداس على ما عرفت من علمه وعمله، ولم يبلغه أبو العباس على ما عرفت من شدته وقوته، ولم يبلغه الإمام ولا وزيره على ما اشتهر من علمهما وفضلهما، لقد اختار الوفد هذه الشخصيات اختياراً عاديا، اما اختياره لأبي زكرياء فقد كان بأسلوب فريد، لقد جعلوه أمة كاملة، أو في مقام أمة كاملة.

ويبدوا أن الوفد لو لم يجد في الجبل غير أبي زكرياء لذهب راضياً، وذكر للناس أن الجبل عامر آهل بأهل العلم والفضل والدين والصلاح.

ولعله من المناسب أن أختم هذا الفصل بما قاله البدر الشماخي : "وشهرة أبي زكريا وعلمه وورعه مما لا يخفى على الحفاظ ؛ وكفاك أنه في زمن امتلأ فيه جبل نفوسه علما وعملا وعدلا، فأختير من جميعهم حتى قيل: " أبو زكرياء هو الجبل، والجبل هو أبو زكرياء. "

أبو مُهَاصر الأفَاطْماني

في هذه القرية التي تنبسط فوق جبال الرحيبات الغربية، نشأ أبو مهاصر موسى بن جفعر : شخصية من الشخصيات التي تجمع بين العلم والكرم والزهد والتدبير. يعيش كما يعيش المؤمنون الصالحون، موزع الوقت بين العلم والعبادة والعمل، لين العريكة سهل الخلق، لطيف المعشر، محباً للمؤمنين عطوفا على الضعاف من جميع المخلوقات، تغلب عليه الإنسانية في أنبل معانيها، فيشفق على صغار الحيوان كما يشفق على بني الإنسان.

يجمع الطرف من ماله فيوزعها على الصبيان، فإذا كانت هذه الطرف مما يؤكل وكان عند أحدهم قطة أو جروة، أعطاها نصيبها ولم يحرمها، وعندما يعود من الصحراء ومعه طرف الصحراء من لبن وزبد وسمن وجبن وغيرها، يقسمها على الجيران، فيعطي ليهودي مثل ما يعطى لغيره من الجيران، مراعيا في ذلك جانب الإنسانية، وممتثلا قولهصلى الله عليه وسلم : " في كل ذي كبد رطبة أجر ".

وقد قيل له في ذلك فأجاب بما أجاب به صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن مسعود t : " إن الله خلق الرأفة وأسكنها قلوب المؤمنين وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب

الكافرين. "

مر ذات يوم على أهل قبيلة يعرفون رقة قلبه وعطفه وشفقته على الضعيف، وإحسانه للخلق، وكان راكبا أتانه التي حج عليها غير مرة، ومن ورائه جحش لها صغير يتبعها، فقالوا ليتيم بينهم لو طلبت الجحش من الشيخ لأعطاه إياك فتقدم الطفل إلى الشيخ وطلب منه أن يعطيه الجحش الصغير، ولم يستطع الشيخ أن يرد رجاء الطفل، فأعطاه الجحش، ولكن الأتان جعلت تمتنع عن السير، وجعل الجحش المفصول ينهق كأنه يصيح مستنكراً هذا الظلم الذي يفصله فيه إنسان عن أمه، وحار الشيخ في الموقف، وبعد تفكير عرف الحل الصحيح للمشكلة، فاستدعى إليه وكيل اليتيم واشترى منه الجحش بدينارين، وهكذا ظفر اليتيم بدينارين، وظفر الجحش بأمه.

مر به قوم غرباء واشتكوا إليه بعد المسافة ومشقة المرض وانقطاع الظهر، فأعطاهم بغلا له يحملون عليه زادهم، ويركبه مرضاهم، فقالوا له : أين نرده ؟ فقال لهم : يوم اللقاء ...

وصادف أن أخا للشيخ كان ببعض بلاد الجنوب التونسي، فالتقى بهؤلاء الركب، وعرف البغل، فاستمسك به، فقالوا له : إن رجلا يقال له أبو مهاصر أعطانا إياه، فقال لهم : وكيف ذلك ؟ قالوا : شكونا إليه قلة الظهر فأعطاناه،وقال : آخذه يوم اللقاء، فقال الأخ الذكي : صدقتم، هذا كلام أخي، وتركهم.

ومع هذا اللين، وهذه الدماثة، وهذا الخلق السمح، كان لا يسكت عن منكر.

باع وكيل يتيم زيتونة اليتيم بأربعة دنانير لرجل محاباة له، فبلغه الخبر، فأنكر ذلك وأبطله، وحفظ غلة اليتيم، وأنفق عليه كامل السنة.

ومر على بستان تين، فوجده قد أسقط ثماره لقلة المطر وشدة الحر، فسأل عن صاحبه، فلما عرفه قال له لماذا لا تجني ثمار بستانك ؟ فقال الرجل : لا حاجة لي به، فقال الشيخ أتأذن لي في أخذه ؟ فأذن له الرجل، فجناه الشيخ وحفظه في مكان، وأسنت الناس بعد ذلك، فطال الجفاف، وامتد القحط، وعظم الجدب، فكان الناس يلتمسون أي نوع من الطعام فلا يجدونه، وجاء الرجل إلى الشيخ يلتمس منه شيئا من الطعام، فقال الشيخ : ليس لي إلا تين ردئ لا يصلح للأكل، فرضي به الرجل وباع له البستان بذلك التين الردئ، وتغير الحال، وهطلت الأمطار، وأمرع الناس، ومر الرجل على بستانه متحسرا وقد اخضر واينعت ثماره، فجاء إلى الشيخ يقول : إن بستانك الذي اشتريته مني نضجت ثماره،فقال الشيخ له : اجن بستانك فأنا لم أشتره منك لأملكه دونك، وإنما أعطيتك ما فرطت فيه من ثمارك، عساك لا تعود إلى إهمال ما رزقك الله من نعمة، ولا تحتقر الضئيل منها.

كان أبو مهاصر مؤمناً، يأخذ نفسه بالشدة والعزيمة في العبادة، خرج مرة في زمن الربيع إلى البادية، وكان معه عمروس المساكني، فلبثوا أياماً على غير ماء فكانوا يتيممون للصلاة، وتكدرت نفس أبي مهاصر من هذه الحال، فقال يحادث عمروساً : " قلوب يربو عليها الشحم مما سمنت، ووجوه تعلوها الغبرة، قلت سلامة الدين مع أهل الوبر، إنما الدين في المدر، والله لا يجمل بنا

أن نترك الدين لاتباع شهواتنا، وإنى لأخاف أن نكون من عاب الله U بقوله :] أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [.

ورد عليه عمروس رحمه الله فقال : ليس في ذلك ما تخافه، لقد أباح الله التيمم لعدم الماء، وأباح الضرب في الأرض لطلب الفضل، وابتغاء الرزق، حيث قال :] وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ [وقال :] إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ [وقال :] فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا[ولكن أبا مهاصر لم يقتنع ورجع إلى منزله.

وليس معنى هذا أن أبا مهاصر لا يرى صحة التيمم لفاقد الماء، أو أنه يحرم ابتغاء الرزق المباح والسعي له، ليس ذلك ما يراه العالم الزاهد، ولكنه يحمل نفسه على أشق أنواع العبادة، ويروضها على التحمل، ويسوسها بحرمانها من شهواتها وما تنزع إليه، فهو لا يريد أن يعمل برخصة ما دام يستطيع أن يعمل بالعزيمة، ولو فوت على نفسه لذائذ متعة، ومنعها من الحصول على رغبة.

وكما كان كريما في نفسه، فإنه يريد من أصدقائه وأسرته وأقاربه أن يكونوا كرماء أيضاً، قال يوماً لإبن أخته يحيى بن موليت : يايحيى لا تعاتب "سارة " إذا أعطت من مالك فإنني لا أعاتب "تَالُولَا " ولو أعطت حمل جمل.

الإباضية في فزان

أقصد بكلمة " فزان " هذا الشريط الصحرواي الذي يمتد جنوب ليبيا من حدود مصر إلى حدود الجزائر، وقد كان هذا الشريط مراً هاماً للجيوش الإسلامية الفاتحة، ثم صار جزاءاً هاماً من الدولة الرستمية. وكان في كثير من الأوقات يتصل إداريا بعاصمة الإمامة في " تاهرت "، وعندما انقرضت الدولة الرستمية، أصبح بعضه يتبع إدارياً حاكم جبل نفوسة، استقلت بعض جهاته الأخرى عن اتباع الحكومات الأخرى، على أن هذه الحالة لم تدم طويلا، وأصبح فيما بعد يتبع الحكومات القائمة في طرابلس أو برقة، هذا من الناحية السياسية ؛ أما من الناحية الدينية فقد كانت فزان معقلا من معاقل الإباضية زمناً غير قصير.

وقد قاسى سكان فزان من الجيوش المتعاقبة التي تبحث عن الثروة والسلطة شدائد وأهوالا، وكثيراً ما يتخذ أولئك الحكام الظلمة قضية المذهب، أو الجنس، وسيلة للجبروت والطغيان، وسبباً للفساد والعدوان، فيقتلون دون رحمة، ويغنمون دون شريعة، ويحكمون بلاد دين ...

وكان السكان يكافحون بكل ما أوتوا من قوة عدوان المعتدين، ويردون بما أوتوا من علم بدع الجاهلين، وتحريف الضالين، فنشأ في أكثر المدن من فزان علماء أعلام، حرصوا كل الحرص أن يضربوا

المثل الحق للمسلم الحق الذي يعرف دين الله، فيقف عند حدوده، ويوضح للسالكين المنهج الواضح الذي شرعه الإسلام للفرد والمجتمع والدولة، ويبينون لأولئك القادة المنحرفين، المسلك الصحيح للقائد المسلم، الذي يحفظ دين الله، ويذود عن كرامة الأمة.

ولو لم يكن لفزان في ذلك العصر إلا العلامة الزاهد عبدالخالق الفزاني، لكفى ذلك القطر الفسيح شرفاً ومجداً ...

كان أبو مرداس كما أسلفت في بعض الأحاديث السابقة واسع الاطلاع، غزير المادة، موصول العبادة، فكان يتحدث في مجالسه بنعمة الله فيقول : لا أعرف إلا الإمام ووزيره وهذا الفزاني، وإنما أعرفه بكتبه.

إنه لم تتح فرصة اللقاء للعالمين العظيمين، ولكن الكتابة بينهما كانت كافية ليعرف كل واحد منهما عظمة الثاني...

كتب أبو مرادس إلى عبدالخالق يسأله عن دواء مرض ألم به، ويسأله أن يدعو الله أن يغني أهل الجبل بغيث عميم، فأجابه العالم الزاهد الذي يرى الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة : " إن مثلك يا أبا مرداس يسأل عن دواء الذنوب " ؟ !! وأجابه عن المطلب الثاني بقوله تعالى :] وَلَوْ بَسَطَ اللّه الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ[فقال أبو مرداس لقد جعلني هذا الفزاني أعض الأصابع ندماً إلى الموت.

هذا الفزاني الذي استطاع أن يبلغ إلى ذروة العلم والتقوى وهو بين الرمال، مقطوع الصلة بالعمران، والذي استطاع أن

يؤلف مجموعة من الكتب لها قيمتها في فزوع العلم وأصوله، هذا العالم الفزاني الذي استطاع أن يجعل أبا مرداس يعض بنان الندم طول الحياة، كتب إلى عمروس بن فتح : أن يبعث إليه بكتابه في علم الكلام، ولما اطلع على الكتاب ودرسه العالم الفاهم، قال في اعتراف المؤمن الصادق الصريح مع نفسه ومع الناس : " النفوسي أقوى مني ".

وهكذا يعترف أبو مرداس بما للفزاني من علم، ويعترف الفزاني بما لعمروس من العلم، وعندما يضم المجلس عمروساً وأبا مرداس في مجلس القضاء أو الفتوى يتشدد أبو مرداس خوف الترخيص، وينتهز عمروساً حين يعتقد أنه يتساهل في بعض الأحكام.

إنها سيرة عطرة لمؤمنين صرحاء مع أنفسهم، ومع الناس.

كان في مختلف بلدان فزان عدد من العلماء الأعلام،كالعلامة عبد القهار ابن خلف، وإدريس الفزاني، وأبي الحسن جناو بن فتى، وعبد الحميد الفزاني وغيرهم، وقد كافح هؤلاء العلماء وأضرابهم الجهل والبدعة والانحراف، وحافظوا على دين الله نقياً،كما جاء عن محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ولم يتخونه التضييع ولم تزد عليه الخرافة والبدعة.

ولعل مما يحسن إيراده في هذا المقام، ماورد عن أبي نصر زار التفسنى : "الكلام كله لغو إلا مسالة في الخير، واستعاذة من الشر، وقراءة القرآن،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والحمد لله،ولا آله إلا الله، والله أكبر".

وطبيعي أن أبا نصر لا يقصد الحصر الحقيقي، وإنما يقصد أن

الـكلام الذي يلتحق بالعبادة، ويكـون عليه أجر، لا يخرج عن هذه الوجـوه، فهو إما تـلاوة لكتاب الله، أو ذكـر لله، أو أمر بالمعروف، أو نهـي عن المنكر، وما بقى من أحاديـث الناس لمصالحهم الدنيوية فهي أحاديث لا أجر عليها، ولذلك فهي في مكان اللغو، أي كأنها لم تصدر عن صاحبها، هذا إذا لم تكن عكس الأغراض السابقة، وإلا أصبحت سبباً للإثم ...

وأبـو نصـر علـى رحابة علمه وسـعة خلقـه، كثيـر العبادة، موصـول العمل، ورد عليه أبو سـهل البشـر بـن محمد يطلب العلـم، ولما حضر المجلس سـمع أبا نصر يقـول في درس من دروس الوعـظ : " لن ينجو مـن علماء آخر الزمان إلا قدر ما يسـلم من المصابيح التي رفعت من بيـت إلى بيت في يوم ريح"فلما أصبح أتى أبو سـهل إلى الشـيخ للوداع، فسأله الشـيخ عن السبب، فقال : سـمعتك وما ذكرت من قلة مـن ينجو من العلماء... قال أبو نصر إذا كان هذا شأن العلماء فكيف بنجاة غيرهم ؟

وأقتنـع طالبـه بضرورة الجد فـي طلب العلـم، والحرص على العمـل بمقتضـى ذلك العلم، فـكان عند رغبة أسـتاذه، وأصبح من فطاحل العلماء، وعندما حضرت الوفاة أبا نصر أخذ يبكي ... قيل :ما يبكيك ؟ قال : خوفاً من الفتيا، قلت : دار من دور نفوسـه لم تدخلها فتواي ...

وكان أبـو الحسـن المديوني يسـتخبر عـن الطـلاب الأذكياء النجباء، فيسـتدعيهم إليه ليدرسـوا عنه، ويغترفـوا من نبعه الصافي، وفي أواخر أيامه رحمه الله، بعث إلى العلامة عبدالقهار

بن خلف يستقدمه ليتلقي عنه علماً رما لا يحسن غيره فهمه، ومـا قاله في رسـالته إليه : " وأحب تعجيل ذلـك، لأني على آخر أيامى، واقتراب أجلي ".

وهكذا يحـرص رحمه الله أن لا يأخذ علمـه معه، إنه يريد أن يترك هذا القبس، حتى تستضئ به الأجيال ...

المدارس

أشـرت في حديث سـابق إلى أن الحركة الثقافية الإسلامية بدأت مع الفتح الإسـلامي، وأن الرواد الأوائل لنشـر هذه الحركة الثقافيـة هم بعض الأبطال، الذين ملكـوا إرادة تقهر الصعاب، وتذلـل العقاب، وكان من هؤلاء ابن مَغْطير الجناوني الذي سـافر إلـى العراق، وتلقـى العلم عن أبي عبيدة مسـلم فـي البصرة، وتلقـى أبـو عبيـدة عـن جابر بن زيـد، وأخـذ جابر عـن جمع من الصحابـة رضـوان الله عليهم، فابـن مَغْطِير من هـذه الناحية يعتبـر في الدرجـة الثانية من تابعي التابعـين، إذ ليس بينه وبين الصحابة إلا رجلان.

ولكن ابن مَغْطِير عندما رجع إلى ليبيا واسـتقر ببلدة جناون وجـد رجلا آخـر قد اعتمد علـى نفسـه، وبلغ من العلـم مرتبة مرموقة، ولكنه في دراسـته لم يعتمد علـى معهد معين، ولم يدرس على شـخص معـروف، إنه كان يحفظ القـرآن الكريم من السابلة، ويتلقى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من المارة، حتى أنس في نفسه المقدرة على الإفادة، فذهب إلى بلدة وأسس هنالك أول مدرسـة لتعليم كتـاب الله، وتفقيـه الناس في دين الله ؛ ذلـك الرجل هو عمرو بن يَمَكْتن مُـن أفاطْمَان : " هذه القرية التي أصبحت اليوم أطلالا في بلاد الرَّجِيبَات الفسـيحة. ولو كان

يحـق للبلدان أن تفخر بما يتولد فيهـا من مجد وعظمة إذن لحق للرحيبات أن ترتفع شامخة في البلاد الليبية، وأن تقول : إنها أول بلد أنشأ مدرسة إسلامية كاملة في " أفاطمان " دون أن تعتمد في ذلك على دولة، أو يوعز إليها بذلك أمير، أو أن يأتيها الأمر من سـلطان مشغول بمد نفوذه، وتوسـيع مدى سلطته، وليس هذا فحسـب، ولكنها تستطيع أن ترفع صوتها لا بالنسبة إلى ليبيا ولكن بالنسـبة إلى العالم أجمع، وتقول : إنها البلاد الأولى التي فكرت فـي قضية تعليم البنت على أسـاس مـن التربية وعلم النفس، الـذي وصل إليه العلـم اليوم، فكونت مدرسـة خاصة بتعليم البنت في " أمسين " بها قسم داخلي، تأوي إليه الفتيات تحت إشـراف مربية قديرة : هى أم يحى زوجة أبي ميمون، فيجدن فيهـا المأوى الأمـين، والغذاء الكافي، والتربيـة النظيفة، والعلم الصحيح.

هذا بالنسـبة للفتيـات البعيـدات، أما الفتيـات القريبات : فقـد يحضرن لتلقـي العلم، ثم يرجعن إلـى أهلهن، كما كانت تفعـل الفتيات السـاكنات في " جِيطَـال " " وأيَنـرْ " "وتِمْيجَارْ " " وَمَرسَاوَنْ".

لما رجـع ابن مغطيـر من البصرة وجـد المدرسـة الأولى التي أسسـها عمرو بن يمكتن في " أفاطمان " قد آتت ثمارها، وتكونت فيها مجموعات من الطلبة الذين يحفظون كتاب الله أو بعضه، ويعرفـون الكتابـة والقـراءة العربية، ويسـتظهرون كثيـراً من الأحاديث النبوية الشـريفة، وهؤلاء الطلبـة يصلحون أن يكونوا نواة لتأسيس مدارس تهتم بدراسة فنون العلم المعروفة في ذلك

الحين في الأوساط الإسلامية.

لقد بدأت هذه الحركة العلمية بسيطة ساذجة في " أفاطمان " فلما جاء ابن مغطير توج هذه الحركة البسيطة بتوجيهها إلى الدراسة العلمية على الطريقة التي رآها في البصرة.

ورجع أولئك الطلاب الذين تعلموا القراءة والكتابة وحفظوا القرآن الكريم والحديث الشريف، وعرضوا شيئاً من سيرة الرسول الكريم إلى بلادهم،فتكونت منهم مجموعات مستعدة للتلقي، فلما عاد حملة العلم الخمسة بعد ابن مغيطير وتفرقوا في البلاد، وجدوا استعداداً في الناس، وقابلية، فافتتح كل واحد منهم مدرسة في ناحية من البلاد، كان لها أحسن الآثار، ولعل أنجح هذه المدارس التي كونها بعض حملة العلم، هي مدارس ابن درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وأبي داود القبلي ثم عبدالرحمن بن رستم – بعد زمن طويل – حين انتقل إلى الجزائر، أما أبو الخطاب فقد شغل بأحداث السياسة، ولم تطل به الحياة ...

إنني حين أتحدث عن المدارس في هذا التاريخ الطويل، الذي يمتد ما بين الفتح الإسلامي، والاحتلال الإيطالي، قد أطلق كلمة المدرسة على معنى أوسع مما تدل عليه اليوم في الاستعمار الجاري بين الناس، وقد يفهم بعض القراء الكرام من كلمة المدرسة نوعاً معيناً من دور التعليم، يجرى على نظام خاص لا يتعداه، إنني بطبيعة الحال لست أقصد من كلمة المدرسة هذا المعنى الضيق فقط، لأن هذه المدرسة لم تكن موجودة في

ذلك الحين في أي بلد من بلاد العالم، وإنما أقصد بكلمة المدرسة: المعنى الواسع الذي يشتق من كلمة لدراسة والتدريس، وهذا المعنى يمكن أن يشتمل على ثلاثة مدلولات :

` الأول : الدور التي أنشئت لتعليم الناشئة وتربيتهم، وتتدرج بهم من المبادئ الأولية لأنواع العلوم المعروفة في تلك الأزمنة، حتى تنتهى بهم أو ببعضهم في مرحلة يشهد لهم فيها بأنهم بلغوا درجات معينة من العلم يستحقون من بعدها أن يسموا علماء، وأن يقوموا بالأعمال التي يقوم بها العلماء، وهذه المدارس عادة تكون ذات مناهج ومراحل وأنظمة معينة.

` الثاني : دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه، التي يقوم بها بعض كبار العلماء في المساجد والمجتمعات والمناسبات، ويقصد بهذه الدروس تثقيف العامة وأشباه العامة، وتنمية معلومات أولئك الطلاب الذين درسوا بعض الدراسة، لكن ظروف الحياة حالت دون إتمامهم لدراستهم، ثم توجيه الأمة توجيهاً دينياً واجتماعياً صالحاً، ونشر الوعي بينهم.

` أما المدلول الثالث : فأعني به الأثر الفكري، أو الاجتماعي الذي يتركه أحد أولئك العلماء الكبار، فيستجيب له الناس، حتى أولئك الذين لم يجلسوا إلى حلقته، ولم يستمعوا إلى دروسه، وإنما وصلتهم إما عن طريق الكتب، أو الرواية، أو سريان الأفكار والأراء، وهذا النوع الأخير شبيه جداً بما نسميه اليوم بالمدارس الأدبية، أو المدارس الفلسفية، أو المدارس الفكرية.

على ان هذا التقسيم غالباً ما يكون شكلياً، لأن أولئك

العلماء الأعلام لم يكن تأثيرهم مقصوراً على جانب من الجوانب المتقدمة، وإنما يكون نشاطهم وأثرهم ظاهراً في جميع ميادين الحياة ... وإنها لخطوات طبيعية للعالم في ذلك العصر أن يبدأ عمله بعد أن يتم دراسته بالتدريس للطلبة في مختلف مراحل الدراسة، حتى إذا تمكن مركزه، وثبتت صلاحيته، زاد خطوة أخرى، فألقى دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه بين الناس في اجتماعاتهم العامة، وفي مساجدهم، وفي مواسمهم.

والواقع أن أولئك العلماء قد وهبوا مقدرة فائقة على توجيه الناس، توجيهاً روحياً عاماً، ذا أثر في الحياة، حياة الناس، سواء كان هذا التوجيه علمياً صرفاً، أم كان توجيهاً اجتماعيا، أم خلقياً، أم دينيا، ومن اليسير عليك أن تجد أثر هذا التوجيه ظاهراً في الشباب الذي تلقى عنهم العلم في حلقات الدرس، أو في الشباب، الذي استمع إليهم في دروس الوعظ والإرشاد، أو في الشباب الذي عاش في عصر كل واحد منهم، وتأثر بسلوكهم ورأيهم في الحياة، وعملهم للمجتمع، وفهمهم للدين، ولست مبالغاً إذا قلت : إن بعض تلك المدارس بمدلولها الأخير، لا تزال حية الأثر في بعض جهات الجبل، رغم تغير الحياة في العصر التركي، ورغم قطع الصلة بين حاضر الأمة وماضيها في العصر الإيطالي، ورغم فتنة العصر الحديث في قضايا الدين، والخلق، والسلوك، وانحراف تفكير شباب المسلمين عن الاتجاه الإسلامي.

والحقيقة أن رسالة المدرسة في تلك العصور، كانت أعمق وأعظم وأوسع من رسالة المدرسة الحديثة، فإن أثرها ما كان ليقتصر على الجيل الذي يتعاطى فيها الدراسة، وإنما كان يمتد

إلى الجيل السابق والجيل اللاحق، إنها مركز الإشعاع، يضئ للمجتمع الاتجاهات النبيلة، التي يجب أن تسير فيها القافلة المسلمة في ظلمة الحياة، فهي بذلك تكشف عن مزايا الماضي، وتوضح طريق المستقبل، ثم تسلح جيل الحاضر بكل الإمكانيات التي يستطيع أن يتغلب بها عما يعترض اندفاعه القوي من صدمات ...

إنني في آخر هذا الفصل أريد أن أتحدث حديثاً مقتضياً عن المدارس التعليمية بالمعنى الضيق، أو بالمدلول الأول ؛ وللقاريء الكريم إذا أراد زيادة اطلاع على المدرسة بمدلولها الثاني أو الثالث أن يرجع إلى فصول هذا الكتاب المختلفة، فإن أكثرها يعالج هذه الشؤون، منذ أسس عمرو بن يمكتن أول مدرسة "بأفاطمان " بدأت المدارس تنتشر بسرعة في جميع الأنحاء وتؤتي ثمارها في أسرع وقت ممكن، ولو أن حركة المد والجزر بين هذه المدارس – وتقوّى بعضها، وضعف البعض الآخر – أمر طبيعي، وذلك نتيجة لشخصيات وإمكانيات الرجال الذين يكونون هذه المدارس أو يديرونها.

ويجدر بي وأنا أتحدث عن المدارس التعليمية أن اشير إلى تكون حركتين هامتين ترافقان التعليم في ذلك العصر.

` الأولى : أتخذ أصحاب تلك المدارس نظما شبيهة بنظم الأقسام الداخلية المعروفة اليوم، يأوي إليها الطلاب الذين يفدون من أمكنة بعيدة، فيجدون فيها المأوى والغذاء والتعليم، والإشراف التربوي السليم، ويقدم الغذاء والمأوى مجاناً للطلاب الفقراء، أما

الأغنياء فيمونون أنفسهم، والنفقات التي تستلزمها هذه الأقسام الداخلية تجمعها إدارة المدرسة من التبرعات، ويقوم ذلك على نظام خاص، رتب له قانون، يسير حياة المدرسة وحياة الطلبة حسب أساليب التربية الإسلامية النظيفة القويمة، وقد تغص الأقسام الداخلية بالطلبة، فيضطر بعض الطلبة الأغنياء إلى السكنى خارج هذه الاقسام، وقد تنقل إحدى هذه المدارس بعض الطلبة إذا لم تجد لهم أمكنة إلى مدارس أخرى تحتمل أقسامها المزيد من التلاميذ.

` الحركة الثانية : القيام بالرحلات الاستطلاعية، وقد عرف المربون في ذلك الحين قيمة الرحلات المدرسية، واطلاع الطلاب على بيئات غير بيئاتهم، وتعرفهم على غيرهم من الطلاب، واشتراك المدارس في دراسة المناهج، ومناقشاتهم في مشاكلهم ؛ فأعدوا لهذه الرحلات، ونظموها، ويسروا لها الأسباب، وكان يقود هذه الرحلات مربون عرفوا بمقدرتهم وكفاءتهم، فكانوا يتولون تعليم الطلاب، واستثارة ملاحظاتهم، وتفتيح اذهانهم لإدراك الفوارق الإجتماعية، والمقارنة بينها ونقدها، وهم في كل ذلك حريصون على ملاحظة آداب طلابهم، وسلوكهم في سفرهم وإقامتهم، فكانت هذه الرحلات تتيح للطلاب مجالا أوسع للاستفادة والتكوين الخلقي والاجتماعي، وتتيح للمربي فرصة أفسح لدراسة نفسية الطلاب، ومعرفة أخلاقهم وسلوكهم.

من المربين الأفذاذ الذين قاموا بعدد من الرحلات المدرسية، تارة يأخذون كبار الطلبة، وتارة يأخذون صغارهم، وتارة يجمعونهم جميعا : أبو الربيع سليمان ابن هارون اللالوتي : " شيخ العلم

والتحقيق، وقدوة أهل التقى والتوفيق " كما يقول أبو العباس الشماخي، وقد ذهب هذا المربي الكبير شهيد هذه الفكرة القيمة.

ففي إحدى هذه الرحلات هجم عليه " بنو تِيجَن " إحدى القبائل الضاربة على حدود الجبل فقتلوه هو وجميع طلابه، ظنا منهم أنهم قافلة محملة بالأرزاق. وفي هذه القضية كتب أبو يحيى الفرسطائي إلى أهل جادو يقول : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، بلغنا أن تسعة رهط من بنى تيجن يفسدون في الأرض ولا يصلحون، قتلوا أبا الربيع. "

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين كانوا يقومون بالرحلات المدرسية مع طلابهم، العلامة أبو هارون الملوشائي، جد الأسرة البارونية الكريمة.

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين يشرفون على هذه الرحلات المدرسية : أبو النجاة يونس الملوشائي وعشرات غيرهم، وليس المهم في هذا البحث أن نحصي الأشخاص الذين قاموا بهذه الحركة، وإنما المهم أن الفكرة كانت موجودة في ذلك الحين.

لقد كان المربون في ليبيا ينظمون ويشرفون على هذه الحركات التي يحسب كثير من الناس أنها وليدة العصر ... ويعتقد آخرون أنها نظام سبق إليه الغرب، والواقع أن علماء الإسلام في كثير من الجهات كانوا كالجندي المجهول، يسبق إلى عمل من أعمال البطولة والمجد، لا يدري به أحد، فإذا وصل إلى ذلك الفكرُ الغربيُّ. وجد من وسائل الإعلان والدعاية ما نسب الشرف إليه، والحق

الاكتشاف به، وأصبح من حفه. وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يلتفتوا إلى تراثهم المجيد في الأصقاع النائية البعيدة من وسائل الشهرة، فإن في تلك البقاع من المجد والعظمة، ومن الهداية والنور، ما يحق أن ينشر بين الشباب المسلم، لكي يربط بين حاضره وماضيه، ذلك الماضي المجيد المشرق، الذي لا يخلو جانب من جوانبه، ولا مكان من أمكنته من ومضات وإشراقات بعثها الإسلام في قلوب الذين آمنوا وأخلصوا الدين لله، فتركوا آثاراً من هدي الإسلام قد يكون العالم في أشد الحاجة إلى الاقتباس منها أو الاستناد إليها، أو الاعتماد عليها.

درس العلامة أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي في مدرسة أبي هارون موسى بن يونس الجلالي، تلك المدرسة التي تخرج فيها عدد غير محصور من العلماء الأعلام، وأبو هارون قل أن يكون ذو علم وبصيرة لم يقتبس من سناه،ولم يغترف من ينبوعه، فهو من أولئك الأفذاذ الذين كانت لهم مدارس بمدلولاتها الثلاثة. أما أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي فقد تخرج عليه أيضاً عدد من الأفذاذ : منهم أبو محمد خصيب بن ابراهيم التمصمصي، ولو امتدت به ا لحياة لكانت آثاره أعظم، لكن المجرمين من " بنى تيجن " قتلوه في ربيع العمر، لقد استشهد وهو يكافح من أجل تخريج جيل واع من الشباب المسلم وعمره سبع وعشرون سنة ...

ولعل أعظم المدراس أثراً في حياة الأمة، وأطولها امتداداً مع الزمن مدرستان:

الأولى : مدرسة أبي المنيب محمد بن يانس، وقد درس هذا

العلامة الكبير على معدن العلم أبي الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسي، ولما أجاز له شيخه القيام بالتدريس، رجع إلى جبل نفوسة، وكون مدرسته العظيمة، التي امتدت أنوارها الساطعة إلى القرن الحادي عشر، وتكونت لها مجموعة من الفروع في مختلف القرى والمدن، تتصل بها اتصالا وثيقاً في بعض الأحيان، ورقيقاً في الأحيان الأخرى. وقد كان للجبل الذي أنشأه أبو المنيب أثر امتد مع الزمن إلى الاحتلال التركي...

الثانية : مدرسة أبي عثمان سعد بن أبي يونس الطمزيني، وقد درس هذا العلامة الكبير على الإمام عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم " بتاهرت " وقد وقع عليه اختيار الإمام، فأسند إليه ولاية قنطرارة وما ولاها : " تيجي " اليوم، فكان فيها مثل ما كان أولئك الولاة الذين سبقوه ولحقوه من استقامة ودين ...

بلد هذا العالم الكبير " طمزين " هذه القرية المعروفة اليوم، العامرة برجال فيهم علم وفضل

وفي هذه القرية كون العالم الكبير مدرسته التي لم تزل تشع بالعلم والثقافة والخلق والدين إلى القرن الثامن الهجري، ولا يزال بناء المدرسة إلى اليوم قائما يتحدي الزمان، ويطاول التاريخ، كما أن الفرع الذي أنشأه في تيجي لا تزال أطلاله.

وبالإضافة إلى هاتين المدرستين اللتين امتدتا بفروعما قرون طويلة، وإلى الحركة العلمية التي أنشأها عمرو بن يمكتن في أفاطمان وما جاورها، وإلى الحركة الثقافية التي غذاها ابن

مغطير الجناوني. بالإضافة إلى هذه الحركات، فقد اشتهر في جبل نفوسة على الأخص عدد من المربين، الذين أدوا رسالة التعليم المقدمة، على خير ما تؤدى رسالة سامية ؛ حرصوا أن ينشأ طلابهم على الخلق الحميد، والفهم العميق لرسالة الإسلام، والاطلاع الواسع على أساس التشريع، وعلى أنواع الثقافة الإنسانية في ذلك الحين، وعلى مقاصد الدين الحنيف،وتطبيق النظريات الأخلاقية في الحياة العملية. هذا فضلا عن اتساع أفق التفكير ومدارك العقل، وغزارة العلم،وتنمية المواهب الطبيعية التي أودعها الخالق في فطرة الإنسان...

وقد يكون من المفيد، أن نذكر في هذا الفصل بعض أولئك العلماء، الذين كان لهم الأثر الحسن في نشر العلم وبث المعرفة، وهدايةا لناس إلى أقوام السبل، في المحافظة على دين الله، والإشراف على مدارس قامت بمهمة التعليم طيلة زمن طويل..

وإليك إيها القاريء الكريم بعض أسماء أولئك العلماء الأعلام :

أبو خليل الدَّرْكَلي

أبو يحيى سليمان بن ماطوس

أبوالقاسم البَغْطوري

أبو يحيى الدرفي

أبو محمد خصيب

أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي

أبو هارون بن موسى الجلاَلِي

أبو محمد يَصليتَن الكباوي

أبو يحيى زكرياء بن يونس الفرسطائي

أبو سهل البشر بن محمد

أبو ذر صدوق الفرسطائي

أبو معروف جواد بن وَيَّار

أبو زكريا يحيى بن الخير الجناوني

أبو الربيع سليمان بن هارون الباروني

أبو يوسف وُجْدَ ليشْ الْإمليلي

داوود بن هارون

أبو يحيى توفيق الجناوني

أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم

أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسي

أبو ساكن عامر بن علي الشماخي

أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى

أبو زكرياء يحيى بن زكرياء

نوح بن حازم المرْسَاوُتي

أبو محمد عبدالله بن عبدالواحد الشماخي

عبدالله بن يحيى الباروني

ولســت أقصد بذكر هذه الأسماء الحصر، فلقد قام عدد كبير من علماء آخرين بمثل ما قام به هؤلاء أو بأكثر، أو بأقل منهم، وإنما ذكرت هؤلاء على سبيل المثال.

وفي كتــب التاريخ التــي تعنى بتراجم الرجــال، يجد الباحث المتقصــي بغيته، قــام كل واحد مــن هؤلاء العلمــاء وأضرابهم بتكوين مدرســة تعليمية،تخرج فيها عدد غير قليل من فطاحل العلماء،كما أن هذه المدارس كانت مراكز إشــعاع تستمد منها الأمــة الثقافــة والهــدى والســلوك، وتقتبس منها النــور والحق والمعرفة ومن الطبيعي أن تكون هذه المدارس مختلفة في آثارها، متفاوتة في مقدار ما أتاحته للناس من فائدة، ويسرته من سبيل للوصول إلى الغذاء الروحي الممتع الصافي.

وإذا كانت بعض هذه المدارس فــي مبدأ الأمر مهتمة بناحية الثقافة وناحية الســلوك، فكانت تيســر ســبل المعرفــة للناس، وتتيــح لهم فرص التعليم من جهة، ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوجيه الســلوك الجماعي والفردي، فكانت تســهر على المجتمع، وتقــوم فيه بدروس الوعظ والارشــاد، داعية له إلى المحافظة على الســيرة النقية التي انتهجها الإسلام، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكــر، حتى كان بعض المربين فيها يبعثون بطلابهم إلى القرى، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى سبيل الله القويم، ليتدرب أولئك الطلاب بالطريقة العملية على هذا الواجب الذي يراه الأباضية من اعظم أركان الإسلام التي لا يستقيم حال أمة إذا لم يقم به أفرادها العارفون، اســتجابة لقوله صلى الله عليه وســلم : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جندان من جنود الله،

من نصرهما نصره الله، ومن خذلهما خذله الله).

إذا كانت بعــض المدارس قد اتجهت إلى هذيــن الاتجاهين، فإن مدارس أخــرى قد اضافت إلى هذين الإتجاهين اتجاهاً ثالثا، كان له خير أثر على التراث الإسلامي، هذا الإتجاه : هو الاشتغال بالتأليف ؛ ولعل أعظم مدرسة قد امتازت بهذه الظاهرة الرائعة، فوجهت طلابها إلى هذا المنحى، فتركت لنا ثروة علمية وتشريعية قيمة، هي مدرسة أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي ...

ولست أعني بهذا أن العلماء السابقين لم يشتغلوا بالتأليف، فإن هــذا رأي لايخطر ببال أحد فيما أظن، وكثير من الكتب التي كانت تدرس في زمن أبي موسى عيسى كانت من تأليف العلماء الليبين في جبل نفوسة، أو في غيرها ؛ وإنما أعني أن اتجاه المدرسة نفســها إلى التأليف، واشــتغال كل الطلاب الذين حصلوا على كفــاءة علمية بذلك، إنما كان في زمن هذه المدرســة، وقل أن تجد طالباً من طلابها لم يشتغل بالتأليف.

ومن الطلاب الذين تخرجوا فيها، واتجهوا هذا الاتجاه : فيلسوف الإســلام العلامة أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي ؛ ومن هؤلاء الطلاب : حجة الإســلام، ومرجع الفتوى،وســند الإباضية : العلامة أبو ســاكن عامر بن على الشماخي ؛ ومن هؤلاء الطلاب : العالــم العامل : أبــو غالي أبو عزير بن إبراهيــم بن يحيى، وهو الذي شغل مركز أستاذه من بعد في التدريس وإدارة المدارس التي أنشأها ؛ أو أدارها، في كل من " طَرْمِيسَه " " ومَزْغوَرَه " " وأمْسِيْن " "ويَفْــرن" ... وغير هؤلاء كثير، ربما تحدتنا عنهم في فصل خاص

بالتأليف..

وقد ترك لنا فيلسوف الإسلام العلامة أبو طاهر: مكتبة عامرة، لا تقل قيمة عما تركه فيلسوف الإسلام أبو حامد الغزالي، واشتغل بالتدريس في بعض الأحيان، إلا أن عنايته كانت منصبة إلى التأليف، وإلى إلقاء دروس الوعظ والإرشاد، والتوجيه، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك لأن العصر الذي يعيش فيه كان يستدعي منه هذا الجانب من الكفاح، فقد بدأ في كثير من الجهات الانحلال الديني، والتفسخ الخلقي، والانصراف إلى المادة في إقبال نهم، كذلك لجأ إلى كفاح الباطل الذي أراد أن يستعلن ويطغى،ويتحول بالأمة المسلمة عن الاتجاه الذي دعاها إليه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

أما أبو ساكن الشماخي: فقد اتجه إلى تأليف الرجال، وقد تخرج عنه عدد غير قليل من فطاحل العلماء. ولم يشتغل بتأليف الكتب إلا قليلا، ومن هذا القليل: كتابه القيم المسمى بالإيضاح، في إربعة أجزاء كبيرة، ويعتبر من أهم المراجع في التشريع الإسلامي، يندر أن تجد له مثيلا.

أما أبو زكرياء يحيى بن العز، فقد اشتغل بالتدريس والتأليف معا، وقد ترك آثاراً قيمة تضاف إلى المكتبة الإسلامية العامرة.

استمرت حركة التأليف نشيطة منذ وجه أبو موسى عيسى طلابه إلى ذلك. فألفت مجموعة من الكتب القيمة، من طلاب أبي موسى. ثم من طلاب أبي ساكن، ومن غيرهم من الطلاب، وامتدت هذه الحركة العلمية المباركة في هذين الاتجاهين، إلى أن

وصلت إلى العلامة المصلح الكبير عبدالله بن يحيى الباروني، كما أن الاتجاه الثالث قد سار أيضا عليالمنوال الذي وضعه أبو طاهر، فقد استمرت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوجيه الاجتماعي، نشيطة إلى أن بلغت ذلك العصر أيضاً، وفي كل هذه الفترات المتعاقبة التي يسلم فيها رسالة التعليم علم إلى علم في أمانة وحرص، كان يقوم إلى جانب ذلك مؤمن شديد في دين الله، قوي على آداء امانة الأسلام، حريص على المحافظة على حدوده. وفي الزمن الذي كان العلامة عبدالله بن يحيى الباروني يقوم برسالة التعليم، ويوجه حركة التأليف، كان العلامة عمرو بن عيسى التندميرتي يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الدين، ومحاربة البدع، والخرافة، في صراحة وشدة ولست أعني بهذا، أن كلا الرجلين مستقل عن الثاني، بعيد عن عمله، لست أعني ذلك؛ وإنما أعني أن الإمام عبدالله الباروني، وأسلافه الذين سار على نهجهم، كانت مهمتهم بالدرجة الأولى: هي التعليم؛ ولكنهم مع ذلك لا يسكتون عن منكر يرتكب، أو حق يضاع، وأن العلامة التندميرتي وأسلافه الذين سار على طريقتهم، كانت مهمتهم الأولى هي التوجيه الديني، ومحاربة الإعراض عن الحق، وعن دين الله، ولكنهم مع ذلك كثيراً ما كانوا يتولون التدريس، وكل ما في الأمر أن بعض أولئك العلماء الأعلام يتجهون من أول الأمر إلى تنشئة الأطفال، وتربية الأجيال، وتسهيل سبل العلم للشباب ...

وأن البعض الآخر يتجهون من أول الأمر إلى إصلاح المجتمع، ونشر الوعي الديني والخلقي بين الكبار؛ في المساجد، والمجامع؛

فكانت الحركتان متساندتين متعاونتين، تكمل كل واحدة منهما الأخرى ؛ على أن العلماء من الفريق الأخير يجدون فراغاً من الوقت أكثر من زملائهم، ولذلك فقد كان إنتاج أبي طاهر في التأليف أكثر من إنتاج أبي ساكن، وكان إنتاج التندميرتي في هذا الميدان أكثر من إنتاج أستاذه وزميله الباروني.

أبو خليل الدَّرْكلي

" دَرْكلْ " كانت قرية جميلة تقع على قمة جبل شامخ بين الجزيرة وأم صفار، ترنو في زهو وإعجاب إلى السفح الفسيح الذي يمتد بين الجبل والبحر، تشقه أودية خضر تتلوى كالأفاعي المسحورة، وفي هذه القرية الجميلة نشأ أبو خليل صال الدركلي!

نشأ طالباً من أنجب الطلاب، يرافق فتية من أترابه إلى الجزيرة ليغترفوا العلم ويقتبسوا الخلق، ويأخذوا السيرة العطرة من أبي المنيب محمد بن يانس، وفي هذه المدرسة العظيمة التي خرجت مجموعة من أعلام الإسلام تخرج أبو خليل.

اقتدى أبو خليل بأستاذه في علمه وعمله وسيرته فأسس هو الآخر مدرسة كانت خيراً وبركة، وفي هذه المدرسة التي أسسها الدركلي وتولى التدريس فيها زمناً غير قصير تخرج العلامة الكبير، نذير زمانه، أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي.

كان أبو خليل صالٌ من أولئك الأفذاذ الذين يملكون إرادة دونها الحديد،وعزماً لا ينتهى دون الغاية، وجداً متواصلا في عمل الخير.

كان يقول للطلبة : احضروا المجالس ياكسالى، فقد حضرها من حضرها، ما يعوقه مابينه وبين قابس وما بينه وبين فزان، حتى

وقع قطاع الطرق عليه فجرحوه سبعة عشر جرحاً، والتجأ إلى مغارة فمكث فيهاحتى شفى من جراحه، ما أكل ولا شرب إلا ما يراه في الحلم، ثم خرج من مغارته تلك، وواصل طلبه للعلم، حتى بلغ الغاية، وأصبح مرجعاً ؛ ومع أن أبا خليل لم يذكر اسم وصاحب القصة إلا أن الطلبة كانوا يعرفون أن صاحب القصة إنما هو أستاذهم أبو خليل.

وكان من أكثر الناس عبادة ومحبة للصلاة، ينطلق في ظلام الليل إلى المسجد يمكث فيه ما شاء الله ؛ يصلي ويطيل في ذلك، وقد يعود من قريب، فسألته زوجته عن اختلاف أحواله وإطالته الصلاة في بعض الليالي، وتقصيرها في بعض الليالي الأخرى، فقال لها : إن النفس إقبالا وإدباراً، فإذا وجد المؤمن في نفسه إقبالا اغتنم واجتهد، وإذا لم يجد في نفسه تمسك بالفرائض وأداها حتى ينشط، لئلا يمل.

وقد تكلف أنواعا من العبادة لا يقوى عليها غيره فقد يجعل ليلة كاملة في ركعة واحدة وقد يجعلها في سجدة واحدة ...

قد يبتسم بعض الناس ساخرين وهم يقرأون هذه الكلمات، ويقولون في أنفسهم : ولماذا هذا العذاب، والله لم يكلف البشر إلا ما يطيقون ؛ والجواب على هذه الإبتسامة الساخرة، تعرفه من أحوال أصحاب الإرادة القوية، الذين يخضعون قوى أجسامهم لإرادتهم ؛ فهم لا يجدون من المشقة إلا ما تجده نحن من الأحوال العادية ؛ ذلك لأنهم راضوا أجسامهم وأخضعوها لمطالب أرواحهم، ثم إن في أخبار هذا الشيخ نفسه الجواب على هذا

التســاؤل، فإن الرجل الذي تقوى عنده الإرادة هذه القوة فيتغلب على مطالب الجسد هذا التغلب، ويرحّل بين ليبيا والقيروان، وبين ليبيــا وفــزان عدداً غير قليــل من المرات لأجل طلــب العلم، ويقع عليه معتدون آثمون، فيجرحونه ســبعة عشــر جرحاً، يصبر لها في الصحــراء حتى تندمل وتبرأ دون غذاء أو علاج ثم يواصل بعد هذا العناء كفاحه من أجل العلم.

إن رجــلا يملك هــذه الروح حقيق أن يأتــي بالأعاجيب، ونحن لو تأملنــا حديثه مــع زوجه الوفية لأســتطعنا أن نعرف كيف تربى النفــوس، وكيف يغنم المؤمن أوقاته كلهــا في الصلاح، فعندما يجد النفــس عازفة عن العمل مدبرة عن القيــام بأعمال النفل يرجع إلى البيت ليقضي حقوق الأســرة، فيحادث الزوجة ويداعب الأطفال. إنه يؤدي واجبات الزوج والأب، وعندما تأذن ساعة الكفاح لنشــر العلم بين الطــلاب، وإصدار الفتاوى وفصل المشــاكل بين النــاس، ينطلــق إلى هذا الميدان وكله قوة وعــزم، إنه يؤدي حقوق المجتمع والأمة، وعندما تهفوا روحه الزكية إلى مناجاة ربه ينطلق إلى المسجد، فيؤدي واجبات المؤمن التقي: تلك الواجبات التي درب عليها نفسه، فكانت فيه ملكة لا يحس معها بالتعب أو السأم، وهو ســاجد لله يســبح بحمده، ويقدس له. فــإذا قضى حق ربه، واطمأنت نفســه. انطلق الى الكفاح ؛ الكفاح من اجل الأمة، أو الكفاح من أجل الأسرة ...

أبو القاسم البَغْطُوري

" بغطورة " مدينة منبســطة على مرتفع ســهل من أراضي

الحرابــة اليوم، بين جريَجنْ وتمنكــرْتْ " بَقيقيلة " وفي هذه المدينة التــي لم يبق منها إلا أطلال مســاجد تشــهد للتاريــخ بما كان للســلف – نشأ أبو القاســم سدرات بن الحســن البغطوري في بيئة مؤمنــة، عالمة بدين الله، عاملة، بــه، حريصة على الاغتراف من مناهل العلم الصافية.

قــال فيه أبو العبــاس : " بقية الحافظين، واعتمــاد أهل الدنيا والدين، بل كان من الراسخين ".

درس في مدرسة أبي ذر أبَانْ بن وَسِيم في " ويغو " ومنه تلقى العلم وفيها تخرج، ثم كون مدرســته في هذه المدينة المنبسطة على ذلك المرتفع الفسيح، الذي تنحدر منه شعاب تزدان بأشجار الزيتون والنخيل.

صــار أبو القاســم مرجع الفتــوى والتدريس بعــد وقعة مانو التي أكلت رجال العلــم وأبطال الكفاح. أما هو فلم يحضر تلك الحرب الضروس لكبر ســنه، وكان قد تجاوز المائة حينئذ، وبارك الله فــي عمره فعــاش ما لا يقل عن مائة وثلاثين ســنة، ضعف فيها جسمه ووهن عظمه، ولكن عقله النير كان يزداد استنارة وعلمه الغزير يزداد غزارة، ولسانه الفصيح يزداد طلاقة. قضى هذا العمر الطويل في نشــر العلم وبث المعرفة وتهذيب النشء، وتعليمهم سيرة السلف الصالحين.

كان مرجعا في جميع فنون العلم، وقد كافح بعد وقعة مانو كفاح الأبطال لتكــون جيل جديد،يتحلى بما يتحلى به أســلافه مــن خلق وعلــم ودين، ولم تمض الســنوات الثلاثــون الأخيرة من

عمره المبارك حتى كان له شباب لا يقلون عمن سبقهم علما وخلقا وشجاعة، وتبوأوا الأماكن الخالية التي كان يشغلها أبطال أكلتهم حرب مانو المسعورة.

ولحاجة الناس إليه لدرس الوعظ والإرشاد، كانوا ينقلونه من مسجد إلى مسجد محمولا، ولا تزال إلى اليوم أخبار تتناقلها ألسنة العوام عن شيخ ينقل من مسجد، إلى مسجد وإن كانوا لا يعرفون الشيخ ولا العصر الذي عاش فيه.

قال له طلابه يوماً انكتب عنك ما سمعنا ؟ فقال : " اكتبوا ولو بأقلام النحاس : صُمَّتْ أذن نسِيَتْ ما سمِعتْ "

لقد كان لا يمل من التعليم، ولا يمل من رواية السير والتاريخ كما كان في عهد الدراسة لا يعرف للتعب معنى، ولا يذوق للنوم طعما إلا غراراً في الأوقات التي يأوي فيها الناس إلى النوم، ويشبعون تقلبا في المضاجع.

كان حريصاً أن لا تفوته دروس أستاذه أبان حتى دروس الوعظ والإرشاد التي يلقيها ذلك العلامة الكبير في المسجد العامر، فكان يقطع المسافة الطويلة بين بغطورة وويغو كل ليلة،فيحضر صلاة العشاء الآخرة، يستمع إلى الدرس العام الذي يلقي في المسجد بعد الصلاة، ولم يحدث أن تأخر عن صلاة الجماعة وحضور هذا الدرس العام إلا مرة واحدة، سبقه فيها شيخه إلى المساجد، ولم تتكرر تلك الحادثة قط حتى تخرج البَغْطوري واشتغل بالتدريس.

إن المسافة بين بَغطورَة وويغو لا تقل عن ستة أميال. ومع

ذلك فإن البَغْطوري عندما التحق بهذه المدرسة لم ينقطع عن الدراسة، ولم يتكاءَدْه تسلق الجبال وهبوط الأدوية حتى بلغ الغاية وظفر بالمراد.

وهذه الإرادة القوية والعزيمة الصادقة التي تحمل النفس على ماتكره هى نفس الإرادة التي لا تخاف لومة لائم في دين الله، ولا نهادن عدوا من أعداء الله، مهما كانت الظروف والملابسات..

دعاه رجل من أهل تِمَنْكرت ليبيت عنده، فكان يسير معه حتى لقى يهوديا، فقال له التِمَنكرءتي : مرحبا، مرحبا وأطهر له الفرح والبشاشة فغضب البَغْطوري من الترحيب بعدو الله. وقال لصاحبه : لا رحب الله بك ولا به، ثم قفل راجعا..

إنه موقف المؤمن الذي لا ينظر إلا إلى الله، ولا يعمل إلا بكتاب ا لله.

] لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ[

كان أبو القاسم قوياً في إيمانه، قويا في أخلاقه، قوياً في صبره واحتماله "

افتقد الناس العلماء بعد وقعة مانو، فتواردوا على أبي القاسم من كل مكان وكان شيخا هرما ولكنه صبر لأسئلتهم، فكان يتململ في مجلسه وهو يحيب على الأسئلة التي توجه إليه ويقول : الكِبَر عيب، وبلغه نعي ولده في وقعة مانو فدخل على زوجته وقال لها : إن صدقت الناعي كما صدقته فاعَتدَّى، وكان ذلك كل ما بأباه من الحزن والأسف.

وتـزوج آخر عمـره امرأة كان يأمل أن تحفظ عليه شـيخوخته، ولكنها كانت امرأة سوء، فاحتملها لله وحفظته ابنة أخيه جانا، فكانت تقوم له بكل لوازمه من غسـيل وطعام وغير ذلك، حتى لحق بربه ...

أبو يحيى الفرسطائي

فرسطاء هى اليوم قرية صغيرة ناتئة في صدرجبل عال كأنها ثـدى عملاق، وقد كانت – من قبـل – مدينة كبيرة تتناثر منازلها علـى صدر الجبل وجوانبه وقمته، وفي هذه القرية التي يهدهدها هذا الجبل الشـامخ في حب وحنان نشـأ أبو يحيى زكرياء بن أبي قاسم يونس الفرسطائي على ما نشأ عليه زملاؤه من أهل هذه القرية العامرة بالإيمان، محباً للعلم، مجتهداً فيه، ولما أخذ مبادئ العلم عن شيوخ مدينته ورغب أن يتم دراسته، ذهب إلى عاصمة الجبل شـروس ليلتحق بالمدرسـة العظيمة مدرسة ابن ماطوس، ولكن العاصمة الكبرى ضاقت به فقد امتلأت الأقسام الداخلية التابعة للمدرسـة، حتى لم يبق بها مكان، ورجع إلى أهل المدينة فلـم يجد مسـكناً فـي أكبر مدينـة بجبل نفوسـة، لأن جميع المنـازل غصت بالطـلاب الذين يقبلـون على اغتـراف العلم من منبعـه العذب، وحار الطالب الذكى فـي مصيره، وذهب إلى ابن ماطوس يستشيره في أمره، فأسف الشيخ الكبير أن يحرم هذا الطالب النجيب من الدراسة في مدرسته لأنه لم يجد مسكناً في مدينة تحتوى على آلاف المنازل، وقال له ناصحاً : إني أدلك على من لو عرفه الناس لتزاحموا على بابه كما تزاحموا على باب أبي عبيدة في البصرة، عليك بأبي هارون الجلالي !...

والتحـق الطالب الذكي بهذه المدرسـة التي لم تزل ناشـئة لم يكثر عليها الإقبـال، ولكنها ما فتئت أن أصبحت من أعظم المدارس التي قدمت للأمة المسلمة الخير الكثير وصدقت فراسة ابـن ماطـوس، فتزاحم الناس علـى باب أبي هـارون الجلالي، كما تزاحمـوا على أبي عبيدة، وكما تزاحموا علـى بن ماطوس، وكما تزاحموا على منابع العلم في كل مكان ...

درس أبو يحيى في هذه المدرسـة، ومنها تخرج وكون مدرسته فـي القرية الجميلة القائمة على صدر الجبل. وفي هذه المدرسـة تخرج عدد غيـر قليل من العلماء الأعلام مـن بينهم أبو محمد خصيب بن ابراهيم.

كان أبـو يحيى قويا في دينه، قويا فـي علمه، قويا في خلقه، قويـا في بدنـه، لقد أضفـى عليه المولـى نعمة القـوة في كل أحوالـه، وكان دائـم الكفـاح لا يمـل ولا يفتر، يعمـل في حقوله ومزارعه كمـا يعمل الفلاحـون المخلصون لمهنتهـم، ويعمل في مدرسـته كما يعمل المدرسون المخلصون لرسالتهم، ويعمل لربه كما يعمل المخلصون في عبادتهم.

وكان داعيـة خيـر وهدى، لا يكف ولا يمل عـن الدعوة إلى الله، فإن كان بين المسلمين دعاهم الى فهم دين الله والتمسك بهدي محمد صلى الله عليه وسـلم وهدي أصحابه، وسـيرة الصالحين مـن المؤمنين، وإن كان بين أقوام لا يؤمنون بالله دعاهم إلى الإيمان وحبب إليهم الإسلام.

سـافر يوما إلى بعض بلاد السودان – وكانوا وثنيين – فلم يزل

يدعوهم إلى الإسلام حتى بلغ أمره إلى ملكهم، فاستدعاه، ولما ورد أبو يحيى على الملك ألفاه ناحل الجسم، ضعيف القوة، فسأله أبو يحيى عما به ؟ فقال الملك : إن هذا من خوف الموت فدعاه أبو يحيى إلى الإيمان بالله، وأخبره بالجنة والنار، ووصف له أحوال المؤمنين في دار الخلود وماأعد الله لهم من خير، ولكن الملك أرتاب في أول الأمر، وقال له : لو صح عندك ما تقول ما بلغت إلينا في طلب الدنيا، فلم يزل أبو يحيى يذكره آلاء الله ونعمه، ويذكر له أن الله دعا المؤمنين إلى الضرب في الأرض، السير في الآفاق، والنيل من طيبات الرزق، حتى أسلم وحسن إسلامه.

والمؤمن الصادق لا يكف عن الدعوة إلى الله في أي مجتمع كان، فلا يفر بنفسه عن الناس، إنه لا يفر إلا الضعيف الذي يخاف على نفسه، والضعيف لا يستطيع أن يؤدى رسالة، أو يبلغ دعوة ...

أبو محمد التَّمصْمصي

تمصمص قرية تقع جنوب طَمُزين قريبا منها، وقد عفى عليها الزمن وامحت أطلالها وأنقاضها،ولم يخلدها التاريخ إلا بنسبة عدد من الأعلام الذين أنجبتهم، إليها.

نشأ أبو محمد خصيب بن ابراهيم التمصمصي في هذه القرية التي تقع على منبسط من الأرض، تحيط بها غابات كثيفة من شجر الزيتون والتين. وفيها تلقى المبادئ الأولى من دراسته، ثم التحق بمدرسة أبي يحيى الفرسطائي، ولكنه كان يحس في نفسه ظمأ إلى مزيد من المعرفة، فذهب إلى " لالوت

" موضع الأشياخ والعلم، كما يقول أبو العباس، والتحق بمدرسة أبي الربيع سليمان بن هارون اللالوتي، فأتم هناك دراسته، وتخرج منها علما من أعلام الإسلام، ومرجعاً من مراجع الثقافة، وسنداً قوياً للمؤمنين في الاهتداء والهداية إلى طريق الله القويم.

بعد أن تخرج رجع إلى بلده تمصمص، وهناك أسس مدرسته الشهيرة التي تخرج منها فطاحل العلماء، وحسبها أنها المدرسة التي درست فيها العالمة البطلة أم ماطوس، التي تغلبت على إرادة البيئة من أجل طلب العلم، والتحقت بهذه المدرسة العظيمة، فكانت تحضر إليها من " جَارُ إصْراَ " والمسافة بين المحلين ليست قريبة، ثم أصبحت ممثلة للمرأة في المجالس العلمية التي يعقدها المشائخ للمناقشة والدراسة في مختلف المحال، فلا تغيب عنها – سواء انعقدت في جناون أو في " تَنْدُوزِيعْ " – أو في غيرها من الأماكن ...

كافح أبو محمد من أجل العلم – دارسا ومدرساً – بكل ما أوتى من جهد وقوة وإخلاص، وكان كريما، يبذل ما يصل إلى كفه من مال، فقد كان لا يجعل للدنيا حسابا، ولا يعرف للمال قدراً، ومهما دخل يديه من ثروة سواء كانت هذه الثروة نقوداً أو كانت ماشية أو كانت محاصيل زراعية، فإنها لن تبقى عنده أكثر من سنة، وقد يدخل يده في بعض السنوات ألف مودى من الحبوب، فما تتم السنة حتى ينفق هذه الثروة الطائلة من الحبوب ولا يبقى عنده شئ من المال، وكثيراً ما عاتبه ولده، وعاتبته زوجه على هذا الإنفاق، ولكنه لم يكن ليستمع إلى كلامهما، فإن من طبع على خلق الكرم وتعود الإنفاق، لا يملك نفسه عن البذل

عندما تتهيأ ظروف المعروف. وكم طالبه ولده أن يشتري الأملاك الثابتة حتى يخلفها له كما يخلفها الآباء لأبنائهم، ولكن أبا محمد لم يستجب لهذا الطلب الذي لا يوافق طبعه، ولا يجري على خلقه، قال له ولده يوما : إنك لست بكيس ياأبتاه ! ... فأجابه الشيخ : الكياسة يابني عدوة الإسلام، ومعروف أن الكياسة المقصودة في هذا الحوار تعني الشح والتقتير والإدخار وتأثيل الأموال.

عاش أبو محمد فقيراً، لأنه ينفق جميع الأموال التي تصل يده في وجوه البر وعندما كبر وامتدت به الحياة، وضعف عن الكسب، احتاج إلى المساعدة.

ولقى رجلٌ من الذين لا يغفلون عن الأمر بالمعروف، لقى هذا الرجل أبا عبدالله محمد بن جنون كاتب أبي زكريا فقص عليه أخبار أبي محمد التمصمصي والحالة المؤسفة التي وصل إليها من الفقر والضعف والشيخوخة. فأسف أبو عبدالله وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون !.. لي مال ومثل هذا الشيخ الذي هو جرثومة من جراثيم الإسلام تصل إليه الضيعة، ثم وضع يده في جيبه فوجد فيه واحداً وعشرين ديناراً فأعطاها للرجل وطلب منه أن ينفقها على الشيخ، فإذا نفذت رجع إليه، ورجاه أن لا يخبر أحداً بحاجة الشيخ، ولا بمساعدة أبي عبدالله له.

وذهب الرجل بهدية الصديق إلى أبي محمد، فلم ينس أبو محمد طبعه الذي دأب عليه منذ عرف الخير والشر، ولذلك فما تسلم المبلغ حتى أخذ منه دينارين أنفقهما في سبيل الله، وما

أتم الباقي من المبلغ حتى توفاه الله إليه.

وكان أبو عبدالله محمد بن جنون ذا علم وفصاحة وبراعة في النقاش، لا يقوى على نقاشه أحد من العلماء، ولكنه إذا حضر مجلس أبي محمد خصيب التمصمصي وقف منه موقف التلميذ من الأستاذ، لا يرفع إليه بصره، ولا يناقشه في سؤال.وهذا الموقف من أبي عبدالله يدل عليمكانة الشيخ الكبرى.

درس على أبي محمد خصيب عدد غير قليل من كبار العلماء. ومن أنجبهم أبو زكرياء يحيى بن سفيان اللالوتي. أما فتاواه ومواعظه وتوجيهاته وأقواله في الفقه فقد بلغت كل مكان، وامتلأت بها بطون الكتب.

أبو يوسف وَجْدليش

"يوُجِلين " قرية واقعة على زاوية مثلث من جبل شامخ متجه إلى مغرب الشمس. وعلى القدم اليسرى لهذا الجبل الشامخ الضارب في الهواء تستلقى جناون الجميلة. والواقف على قمة هذا الجبل فوق الأبراج المتينة التي شادتها هنالك سواعد الأجداد القوية ليحرسوا منها مدخل جناون يشاهد مدينة "مزغُورَةْ " رابضة فوق منبسط فسيح من الجبل المقابل، فإذا انحطت عيناه إلى الشمال قليلا رأى في السفح قرية " شَكشُوك " كأنها نجمة يحيط بها هلال أخضر من نخيل، ومن هنا وهناك حول هذه القرية الجميلة تنحدر أودية خضراء ملتوية، تتقارب وتتباعد حتى تذوب في الأرض المبنسطة التي تتكون منها حقول القمح

والشعير.

وفي هذه القرية، وعلى رأس هدا المثلث، ولد أبو يوسف وَجدليشْ بن فِي، وصافحت عيناه النور، وتمتع منذ صغره بالجمال الذي اضفاه الخالق على طبيعة هذه المنطقة. وهل أجمل من أن يقف الإنسان في " يوجلين " ويستدير ببصره من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين ؟ يرمى ببصره إلى المشرق فيمتد بين غابة زيتون ونخيل تحجب لون الأرض بخضرة داكنة، فإذا استدار قليلا طالعته المبانى العالية " للقصير، وأشبارى، وجادو " متراكبة كأنها ناطحة سحاب من صنع الخالق، ومن هناك ينزلق بصره إلى " تموقت " التي تقع فوق سرة هذا العملاق العظيم، ومنها ينبع النهر الخالد الذي يروي الناس والشجر، وعلى قدمي هذه القرية الصغيرة ملاءة خضراء من شجر النخيل والأعناب والتين، وتحتها تستلقي جناون في استرخاء كأنها تغط في حلم لذيذ، يتصاعد أمامها إلى الجنوب وادي جناون الجميل، فيكون ثلالا في مَاصَرء، وينعقد بحيرة في الزرقاء، ومن هذه البحيرة التي لا تزال إلى اليوم مصيفا لسكان الجبل ومقصداً للسواح الذين يزورون ليبيا. من هذه البحيرة ينحدر الوادي وترتفع عينا الناظر مع الجبل المقابل فيجد مدينة " جمارى " التي تسكنها جدة المشائخ " مارن " " وندُبَاسْ " التي يقع فيها أبو نصر، ثم " مزغورة " التي ترتفع منها صومعة أبي زيد، كما ترتفع المنارة الحدباء، فإذا استدار إلى الشمال انحطت عيناه على أرض ا لجفارة الفسيحة التي تشبه أن تكون زربية بسطتها هنالك قدرة الخالق في أيام الربيع.

على هذه القمة وبين هذه المناظر الفاتنة، نشأ أبو يوسف جميلا، صريحاً، حنوناً، يملأ قلبه الكبير حب للحق يستولي على مشاعره، فكان بذلك مؤمنا من أولئك المؤمنين الذين ينطبق عليهم قوله تعالى :] أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ[يعرف الحق ويسير معه أنى سار لا تأخذه في الله لومة لائم. أخذ على نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فقام بهذه الفريضة كأحسن ما يقوم مؤمن بواجب من واجبات الدين، لا يعرف الغفلة ولا المسايرة ولا المداهنة في دين الله،حتى إذا قام الحق واستقام الناس على الطريق، وغلب أمر الله، لزم نفسه، فكان ألين الناس خلقا، وأطيبهم نفساً، وأكثرهم حبا وحناناً للمسلمين وعليالمسلمين.

جعل إليه أمر السوق في " جادو " خوفا من أن يقصده أولئك الذين دخلت اموالهم الريبة من الأموال المغصوبة التي يبتزها الحكام الظالمون وأتباعهم، أو الأموال المنهوبة التي يسرقها أقوام لم تطمئن قلوبهم بالإسلام، ولم تخضع جوارحهم لأحكام الله،فكان لا يستطيع أحدٌ أن يبيع شيئا في مدن الجبل إلا بعد أن يعرف مصدر ذلك المال.

وكان أبو يوسف رقيباً فطنا في سوق جادو فما يستطيع أحد أن يبيع شيئاً إلا إذا أذن له، ولا يأذن أبو يوسف إلا إذا تحقق من مصدر مايبيعه الناس، وعرف أن هذا المال لم تدخله ريبة، ولم يملكه صاحبه من حرام،ولم يتعامل مع أصحاب الشبهة.

جاء رجل من " إيَنر " بغنم له ليبيعها في " جادو" فأستأذن أبا

يوسف في البيع، فسأله أبو يوسف عن نسبه ونسب غنمه،ولما اطمأن إلى أن صاحب هذه الغنم ممن لا تتطرق إليهم الشبهة سمح له بالبيع، وجاءه من بعده رجل من "أغَل" يستأذنه في بيع غنم، فسأله عن أبيه، فلما عرفه وتحقق أنه يتعامل مع المشبوهين غضب عليه وانتهره قائلا : أفي سوق جادو وتبيع حرام أبيك ؟! ...

ولم يزل به حتى أخرجه من جادو ولم يتركه حتى أوصله إلى ماطَس.

وقد جمع إلى هذه القوة في أمر الله، العلم بدين الله،والحب في ازياد المعرفة حتى وهو كبير، فكان إذا ذهب للعمل يأخذ معه أداة العلم من كتاب أو لوح، فيختطف لحظات من الوقت وهو يشتغل ليراجع مسألة، أو يردد شيئا مما يود استظهاره من فنون العلم.

وقد جلس للتدريس، وأخذ عنه العلم خلق كثير، أما هو فقد درس على أبي يحيى يوسف بن زيد الدرفي، وأبي نصر زار بن يوسف التَّفَسْتِي، وغيرهم.

كان يحضر مجالس العلم في دار بني عبدالله في جادو، فإذا انتهى المجلس رجع إلى منزله في " يُوجُلين "، وحقد عليه قوم من لم يتركهم يبيعون إموالهم المستراباة في سوق جادو، فكمنوا له في الطريق في إحدى الليالي، ولما أراد منزله، خرجوا عليه من مكمنهم فجرحوه بضعة عشر جرحاً، ولما حضر المشائخ إليه في الصباح وحاولوا أن يعرفوا منه أسماء القوم المعتدين امتنع عن

ذلك، ولم يرض أن يداوي فتنة بفتنة، واحتسبها لله.

ولكن هذا الموقف الظالم لم يمنع الشيخ من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يمنعه من حضور مجمع العلم في دار بني عبدالله، ولا من الصلاة في "إمَسْراَتن" الجامع الذي بنته نفوسة كلها، والذي يعقدون فيه اجتماعاتهم إذا حز بهم أمر أو أهمهم شأن ...

أبو زكريّاء يحيى بن الخير الجناوني

جناون مدينة غناء تستلقي في دلال على أقدم جبل أشم وتلعب على سرته القرية الظريفة الضاحكة " تمَوُقَتْ " وتجثم على صدره من الجانب الأيمن بلدة " القصير " الجميلة، أما هامته المرتفعة التي تناجي السحب فتتوجها مدينة جادو، العظيمة الحديثة.

أما كتفاه القويتان فقد وقفت على إحداهما " مَزُو " وعلى الأخرى "يوجلين " تصفق الأولى " لِلْجُمَّارى " وتبتسم الثانية " لِمزْغُورَة ".

وفي هذه المدينة الحالمة المسترخية على أقدام الجبل متلفعة بغلالة خضراء نسجتها يد الطبيعة الساحرة، تخترقها جداول المياه المنحدرة مع شلال القصب " إيغَانِيمَنْ " نابعة من نهر " تَمُوقتْ " النزَّار، وتحيط بها الأشجار الباسقة الكثيفة من زيتون ونخيل وكروم، وتناجيها الشمس الغاربة على صومعة أبي زيد، فتبعث إليها قبلات المساء مع الأشعة الصفراء الدافئة..

في هذه المدينة الجميلة الفسيحة التي كانت منبعاً من

منابـع العلم، ومركزاً مــن مراكز الإيمان، وحصنـا لإنتاج الرجولة والبطولـة والفداء، في هذه المدينة التي اسـتعصمت على قوى الميُّورُقِـى حـين طاش بـه الغضب، وظن أنـه أوتي مـن القوة ما يقضـي به على الحياة، فأضرم النار ليحرق هذه المدينة وما يحيط بهـا من أجنة وبسـاتين، فاحترق ما يزيد عن إثني عشـر ألفا من شـجر الزيتون، ولكن جناون بقيت صامدة له وللتاريخ، وقد أحرق التاريـخ الميورقـي وأضرابه مــن الظلمة، بعـد أن أحصى عليهم جرائمهم، وبقيت جناون تبتسم للحياة ...

وفي هذه المدينة العظيمة نشأ أبو زكريا يحيى بن الخير بن أبي الخير الجناوني، تظهر عليه مخايل النجابة، وتسـطع على جبينه أشـعة الصلاح، وتـدل حركاته وكلماته على الـذكاء والعبقرية منـذ الصغـر، وقد ربـى تحت رعاية جـده أبي الخيـر، فغذى عقله بالمعرفـة، ومـلأ قلبه بالإيمان، وعوده السـير على هدى الإسـلام، فبلغ شهرة علمية لم يصل إليها جده.

وقد عكف على تأليف الكتب، فزود المكتبة الإسـلامية بعدد من النفائس تزدان بها رفوفها العامرة، ولقد أصبح مرجعا يقبس منـه العلماء والطـلاب، ويرجع إليـه الباحثـون والمتطلعون إلى المزيد..

درس فــي المدينـة العلمية " إِبَنَايِنْ " علـى العلامة أبي الربيع سليمان بن أبي هارون الباروني، ولما أتم دراسته هناك ورجع إلى بلده جناون، اسـندت إليـه الفتوى، فكان نعم المفتـي، لا يعيا بجواب، ولا يقف في سـؤال، ولا يعسـر عليه حل مشـكلة من مشاكل

المعرفة.

وكان سـمح الخلق، لين العريكـة، كريم اليـد، ولكنه مع هذه الصفات اللينة كان شـديدا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يؤثر عليه موقف من المواقف، يقول فيه أبو العباس الشماخي : " كان اعتماد أهل نفوسـة على كتبه، حفظا وفتيا،لكونه أودع فيهـا المأخوذ بـه من الأقوال، وربما ذكر الخـلاف، وهي كتب مفيدة فـي الأحـكام، " وإن رجلا يجوز ثِقة أمة فتعتمـد كتبه في دينها وأحكامها، رجل بلغ الغاية.

وهو إلى هذا الاطلاع الواسـع، والعمل المتواصل في التأليف، كان جم النشـاط، موصول الجهد في نشـر العلـم وبث المعرفة، وقد درس عليه كثير من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، ويرجع إليهم في عويص المسائل، ومعضلات المشاكل.

أمـا حرصـه على التعلـم وجده فـي الدراسـه، وإقباله على الإطلاع، فقـد كان مضرب الأمثال بين الأقـران ويكفى أنه بقى في إبنائن مدة دراسـته على أبي الربيع، لـم يجد من وقته فراغاً يقضيـه في النجـول بين أحيـاء المدينة، أو الإطـلاع على البيئة التي تحيط به، فلما أتم دراسـته وأراد الرجوع إلى بلده، استأذن من شـيخه أن يقوم بجولة يطلع فيها على ما لم يعرفه من البيئة التـي قضى فيها زمنا غير قصير من عمره المبارك، وأن يدخل إلى القسـم المخصص للنسـاء في المسـجد العامر، الذي كان محلا للعبـادة، عامـراً بذكر الله آنـاء الليل وأطـراف النهـار، كما كان مدرسـة تؤدي رسـالة التعليم للكبار في دروس الوعظ والإرشاد،

تثقف عقول أولئك الناس الذين حرمتهم ظروف الحياة من الدراسة في الصغر، فتيسر لهم سبل التعليم، وتنور قلوبهم بما تضفيه عليهم تلك الدروس من هدى وحكمة ...

أبو نصرُ فتح بن نوح الملوشائي

" تملوشايت " مدينة فسيحة تنبسط على قمة جبل شامخ، ترنو إلى مغرب الشمس وتناجي زميلتها فرسطاء الجاثمة على ضفة الوادي المقابلة.

في هذه المدينة التي كانت تنافس عاصمة الجبل " شروس " العظيمة في يوم من الأيام، ولد أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي، وعلى هذا المنبسط فوق القمة الشامخة الذي يزدان بشجر الزيتون الأخضر درج، وعلى حوافي الجبل الشامخ كان يثب في خفة الوعل، أو يجلس ورجلاه تتأرجحان على ارتفاع شاهق وعيناه تنطلقان على مدى البصر في سهل الجفارة الذي لا يجد، وخياله يذهب سابحاً منطلقاً حراً فوق الغيوم ...

لقد كان لهذا الموقع الشاعري الساحر أثره على هذا الطفل الذي شب في مدينة العلم والجمال ؛ وبعد أن تلقى المباديء الأولية، انتقل إلى المدرسة الكبرى، التي كان يشرف عليها خاله أبو يحيى زكرياء بن إبراهيم، فكان نعم التلميذ لنعم الأستاذ.

بلغ في الدراسة مبلغاً لايصله إلا القليل من عباد الله المختارين : ثقافة واسعة، وخلق رضى، وإيمان قوي، وشدة في دين الله، وقيام بالحق لا يقوم به إلا عدد ضئيل من أصحاب المبدأ والدين والضمير، إذا ترافع إليه الناس للخصومة جعل بينه

وبينهم ستراً من باب أو جدار أو غيره، حتى لا يغلبه الحياء فيميل مع أحدهما.

وإلى هذا الإيمان القوي، والدين القويم، والعلم الواسع، كان شاعراً مطبوعاً ليس له نظير من العلماء الشعراء ؛ تطالع شعره فتجد حكمة المتنبى وجزالة لفظة.

وقد ينظم في العلوم، فتجد في نظمه الشاعر التي تخلو منها المتون الفقهية واللغوية، وإذا كان الشعراء غالباً ما يقضون أعمارهم يهيمون في الأودية، ويتسكعون في المنازه، ويلغون في الباطل، فإن هذا الشاعر العبقري كان عاملا ومن دعاة العمل،وجاداً ومن دعاة الجد، ومكافحاً ومن دعاة الكفاح، فاستمع إليه يصف لك طريق السمو والمجد :

وسهر الليالي والسرى والتهجر

سما من سما بالجد والعزم والصبر

إن الإرادة القوية، والعزيمة الصادقة، والصبر على المكاره، ومواصلة الكفاح في الليل والنهار لهي الوسائل التي ترتفع بالإنسان إلى مراتب المجد والكمال. والشاعر يصور لنا الرجل الذي يظفر بإعجابه وحبه، والرجل الذي يزدريه ويبتعد عنه في بيتين رائعين من الشعر القوي:

لدنيا وأخرى، عاملا بالتشمر

أحب الفتى ماضى العزائم حازماً

ولا بالجثوم الراكد المتدثر

وأما أخو النومات لا مرحبا به

قارن بين الرجال الثلاثة في هذين البيتين، انظر إلى هذا الفتى الحازم، صاحب العزيمة الماضية، الذي يشمر عن ساعد الجد، ويكافح من أجل الحياة السعيدة، في الدينا والآخرة ؛ إنها صورة للمسلم الحي الذي يعرف قيمة الرسالة المنوطة به في الحياة، وقيمة العمل الذي يسأل عنه يوم القيامة، فهو لا ينسى آخرته بدنياه، ولا ينسى دنياه بآخرته فيعيش عالة على الناس.

ثم انظر إلى هذا الكسلان الذي يقطع يومه بالنومات، فهو لا يدأب على عمل، ولا يستمر في كفاح، استمرأ البطالة، وتعود على الإمتداد لا يصلح لدنيا ولا الدين.

أما الصورة الثالثة : فهي لهذا الرجل الذي يقبع في زاوية البيت أو المسجد، قد تلفع بثوبه وركد ركود الصخر، تحسب أن الحياة قد فارقته، فهو جاثم جثوم الجماد لا روح له ولا حركة، وتأمل معي هذه الصورة الشعرية الرائعة للكسلان الذي يعيش على الأمل لا على العمل، يبيت ليله مهموماً مشغول الفكر يقلب أوجه الرأي في طريق الكفاح، فإذا أصبح لم يعمل شيئاً، حتى يأوي به الزمن السائر الدائر إلى ليلة مقبلة، فيعاود ما كان عليه، حتى ينصرم منه العمر، ويذهب به التاريخ فيمن ذهب من الناس :

حِبال الأمانى والوساوس والفكر

سمير هموم وسَّد الرأس ليله

واقرأ معي إن شئت هذه الصورة الحية للإنسان في معركة الحياة :

أحاطت به الأمواج في لجج البحر

وما المرء في دنياه إلا كناعِس

وتأمل معي إذا أردات هذه الصورة الرائعة لواقع الناس، عندما يدهم أحدهم الموت ؛ فيذكرون الله، ويفزعون إليه، ويخشون عاقبة أعمالهم، حتى إذا توارى الميت ؛ وبعد عنهم شبح القبر، رجعوا إلى ما كانوا عليه من تكالب على الدنيا، ونزاع على لذائذها وشهواتها :

وتأبي الطباع الانتقال عن الصبر

ترى عند ذكر الموت للنفس نفرة

وغاب فعادت لاقتطاف المنور

كذئب دهى خرفان حي فأَرَزت

والشاعر العالم كبير القلب، يحب الإخوان، ويبعث إليهم بتحاياه في كل مكان :

سلام على الإخوان في كل موطن...

ولكن هذا الحب لا يمنعه أن يوجه إليهم كلمة العتاب والتوبيخ على جمود الفكر وضآلة العمل، وقرب الغاية التي يسعون إليها إذا كانوا يتجهون بدراستهم إلى أنواع معينة من المعارف تدر عليهم أباحاً مادية، ولكنها لا تسمو بهم في ميادين الثقافة العالية، والكفاح المثمر، الذي يدعى إليه المسلم الحريص

على أداء رسالة الإسلام ...

بفقه المعاش مولعين بالسن

نظرت إلى قرائنا فوجدتهم

ومن أمرّ ما ينتقد على هؤلاء المتعلمين القاصرين أن معارفهم سطحية، لا تتجاوز ألسنتهم، إنهم لم يصلوا إلى أن يكون علمهم مبدأ، وعقيدة راسخة في القلوب، عليها يعملون وبها يصدرون.

والشاعر المؤمن العالم عامر الجوانب، غزير المادة لا يصوره حديث عابر في فصل من كتاب، وإذا يسر الله فسوف أعود إليه في دراسة أدبية تتنازل بعض كبار الشعراء.

كان أبو نصر يجلس على حافة الجبل، متجهاً إلى الشمال، حيث تنبسط أمام عينيه السهول الفسيحة، التي تمتد ما بين جبل نفوسة والبحر، وفي هذا الموقع الجميل الذي يطل منه على العالم، نظم أبو نصر أغلب شعره، وأكثر متَونه، وفيه ألَّف مقاماته الرائعة، التي نحا فيها منحى جديداً بالنسبة إلى ما عرف من أساليب المقامات وأغراضها، لقد كان يأوي إلى ذلك المكان الشاعري بعد صلاة الفجر، عندما تخف حرارة الشمس الغاربة، ويرق نسيم الأصيل.

أما ليله الذي يبتدئ بعد نهاية الدروس التي يلقيها في المسجد بعد صلاة العشاء لعموم الناس، فقد كان يقسمه قسمين : قسم لمذاكرة العلوم ومراجعة الأسفار الضخمة والتحقيق العلمي الذي يحتاج إليه ؛ أما القسم الآخر فخاص

بعبادة ربه، يناجيه فيه، ويستلهمه الهداية والتوفيق والبركة، وعند الصباح كان يشتغل بالتدريس، لينشئ جيلا من الشباب الواعي يتحمل عنه رسالة الإسلام.

وهكذا كانت تمضى حياة أولئك الأعلام بين حلقات متواصلة من الكفاح، لا يفترون ولا يملون ...

ولا بالجثوم الراكد المتدثر

وأما أخو النومات لا مرحباً به

أبو موسى عيسى الطرميسي

"طَرمِيسَةُ " اليوم : قرية صغيرة جاثمة على قمة ضاربة في الهواء بين واديين عميقين تشبه أن تكون ناطحة سحاب، أو وكر عقاب، يفصلها عن بقية الجبل من جهة الجبل خندق عميق، يصل بين الواديين، حفرته أيدي العمال الأقوياء ليحفظوا هذه القرية الصغيرة من عدوان المعتدين، ومفاجآت المغيرين، عندما تكالب الناس على الدنيا، وبعدوا عن دين الله ؛ فكانت بذلك تشبه أن تكون جزيرة معلقة في السماء ؛ أما موقع "طرميسة " القديم فيقع إلى الجنوب بنحو ميلين على حافة الوادي الجميل، الذي تنبع منه عين " قَلُّو " حيث ترد اليوم أسراب من الحمام يخطئها العد، وفي هذه القرية التي تطل على هذه العين، التي كانت في يوم من الأيام شبيهة بعين الزرقاء، ولد أبو موسى عيسى الطرميسي، وفيها نشأ، ولما بلغ سن الدراسة التحق بمدرسة أبي يحيى وجدليش، وعنه درس، وفيها تخرج، ولما أتم دراسته أسس

مدرسته العظيمة التي خرَّجت عدداً غير قليل من الأعلام.

تقع المدرسة التي أسسها أبو موسى عيسى الطرميسي فوق ربوة عالية متوسطة بين جادو وطرميسة، ويظهر أنه اختار هذا المكان حتى يكون وسطاً بين مجموعة من القرى، يأتي إليها الطلاب الذين يقيمون في الأقسام الداخلية التي أعدتها لهم المدرسة، فقد كانت تبعث إليها مبالغ من المال من مختلف الجهات لينفق منها على طلاب هذه المدرسة.

انقطع هذا العالم الكبير إلى التعليم، فلم يشغله عنه مال ولا ولد، وطالما نصحه أصدقاؤه أن يتزوج، ولكنه آثر العزوبة التي ينقطع فيها إلى العمل والعبادة، فلم يتخذ له شريكة في الحياة، ووهب كل حياته لربه وطلابه.

قضى زمناً غير قصير في تنظيم هذه المدرسة التي أسسها في مركز ممتاز، يجمع بين عدد من القرى، فلما استقرت أركانها، وقويت على آداء رسالتها، وانتظم أمر التعليم والطلبة فيها، تركها لبعض طلابه النجباء يتولى أمرها، ويسير قضية التعليم فيها، وانتقل إلى تلك المدرسة العظيمة التي أسسها أبو زيد المزغورتي، حين شعر أن أمر التعليم في هذه المدرسة العظيمة بدأ يتدهور، وقام بهذه الرسالة المقدسة في هذه المدرسة الكبرى فانتعشت حركة التعليم، وعادت فيها السيرة إلى ما كانت عليه يوم كان يشرف عليها أبو زيد العالم العظيم، وقد بقى في هذه المدرسة حتى وافته المنية سنة عشرين وسبعمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

كان أبو موسى جميل الطلعة، قوي البنية، نبيل الصورة، أبيض اللون، تبدو عليه سيماء الصلاح ؛ ولما أحس بدنو الأجل، أوصى أن تكون مكتبته العامرة وقفا على طلبة نفوسة وعلمائهم، ولست أدعى في هذا المقام أن هذا الموقف من أبي موسى يعتبر الفكرة الأولى لتكوين المكتبات الشعبية، فأنا أعرف أن الدول قبل هذا الأوان كانت تكون المكاتب التي تجمع أندر ما في العالم من نفائس ولكنني لا أزعم أنني وقفت فيما أطلعت عليه أن شخصا سلك هذا المسلك وكل ما عرفت : أن الشخص قد يحرص على بعض نفائسه، فيجمعها وقفا على أبنائه، أو ما يشبه ذلك.

وفي رأيى : أن أبا موسى قد يكون صاحب الفكرة الأولى لتكوين المكتبات الشعبية، التي تيسر الاطلاع للناس دون اعتماد على أموال الدولة أو سلطة الحكم.

أحسب أني أشرت في بعض الفصول السابقة : أن مدرسة أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي تكون اتجاها جديداً في الحياة العلمية بالجبل، ويصح أن تعتبر مبدأ نهضة علمية سلكت وجهة كانت خيراً وبركة على الأمة. هذا الاتجاه هو ما حرص عليه أبو موسى من توجيه طلابه إلى تأليف الكتب، هذه الناحية التي كانت فيما سبق لا يشتغل بها إلا بعض الأفذاذ، الذين يجدون فراغا في وقتهم، وإنما كانوا يعتمدون على الرواية ولا سيما في علوم الشريعة بمختلف فنونها. وقد استجاب أولئك الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد علماء قد يفوقون أستاذهم ... استجابوا له، وعكف مجموعة منهم على التحرير،

فأنجـزوا لنـا في زمن قصيـر مجموعة من الكتـب القيمة، التي يحق أن تفخر بها المكتبة الإسلامية في كل العصور، ويكفي أن نضع على رأس القائمة مؤلفات فيلسـوف الإسـلام " الجيطالي " ليعرف الباحثون عن التراث الإسـلامي أي ثروة تركتها لنا هذه المدرسة العظيمة التي لم يبق منها إلا مسجد فوق ربوة عالية، بين طرميسة، وجادو يصارع الزمن، ويتحدي التاريخ.

قد يفهـم القارئ الكريم مـن حديثي هـذا أن حركة التأليف في العصور التي سـبقت أبا موسى الطرميسي كانت ضئيلة، أوضعيفة، فإذا خطر لأحد القراء الكرام مثل هذا الخاطر فليعلم أننـي لم أقصده أبداً ؛ فإن حركة تأليـف الكتب لم تتوقف يوماً من الأيام منذ تشـرفت هذه البلاد بالإسـلام، وإنما كان الاهتمام بهذا المنحى اهتماما فرديا لا مدرسـيا، أما أبو موسـى فقد وجه مدرسـته نفسـها إلى العنايـة بالتأليف، ولذلك فلـم يبق أحد مـن طلابه ممن يقوى على القيام بهـذه المهمة دون أن يقدم إلى المكتبة الإسلامية ما يستطيع من نتاج.

وقد اسـتمرت هذه الحركـة منذ هذا الجبل، أو هذه المدرسـة، جادة نشيطة تؤتي أحسن الثمار.

لا يكاد يوجد شـخص ممن ينسـب إلى العلم في ذلك العصر لم يدرس في مدرسة أبي موسى ؛ وقد تخرج فيها عدد غير قليل مـن العلمـاء الأعلام، وحسـبها أن يكون من طلابها فيلسـوفا الإسـلام المؤمنـان العالمـان العاملان : أبـو طاهر اسـماعيل بن موسى الجيطالي، وأبو سـاكن عامر بن علي الشماخي. وحسب

أبي موسى شرفا أن يكون هذان العالمان من طلابه...

أبو طَاهر إسمَاعيل الجيطالي

" جيطال " : مدينة فسيحة تقع بين أمُسين وإِينَرْ، على ربوتين متقابلتين كأنها نهدان على صدر حسـناء، تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من الزيتون والتين.

وفي هذه المدينة الفسـيحة نشأ فيلسوف الإسلام صنو أبي حامد الغزالي: أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالي ...

درس أبو طاهر على أبي موسـى عيسـى الطرميسـي، ومن مدرسـته العامرة تخرج، وبلغ من فهم الإسلام وأسرار الشريعة مبلغاً قصر عنه الطالبون، وتضاءل دون بلوغه العارفون. اشتغل بالتدريس في مدرسة أبي زيد المزغورتي وقد التقى فيها بعد وفاة شـيخه أبي موسى بزميله وصديقه العلامة أبي عزيز، ثم انتقل إلى فَرسـطَّاء، فقام فيها بالتدريس تسع سنوات كاملة ؛ وأخيراً انتقـل إلى جزيرة " جربة " وبقى فيها إلـى أن وافاه الأجل المحتوم، فحلق بربه.

أبوطاهر الجيطالي : عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي في ذلك العصر، خدم الإسـلام بإخلاص المؤمن، وجـد العالم، وعمق الفيلسوف، والآثار القيمة التي تركها تحتاج إلى مزيد من العناية والدراسـة والبحـث، ولـو قدمـت تلك الآثـار اليوم إلـى المكتبة الإسلامية الغنية لاحتلت بينها مكانا مرموقا.

ولعل من أعظم ما كتب عن معاني الإيمان وفلسفة الأخلاق : كتابه القيم " قناطر الخيرات " في ثلاثة أجزاء ضخمة، والجيطالي

وإن كان متأخراً عن الغزالي، إلا أن مقارنة بينهما قد تكون من المباحث الممتعة التي تحتاجها المكتبة الإسلامية، والمقارنة بين الفيلسوفين المسلمين العظيمين تحتاج إلى ذهن صاف، وفكر نير، وفهم عميق لروح الإسلام، وأثرها في العقيدة والسلوك.

والجيطالي لو لم يقدم إلى المكتبة الإسلامية إلا هذا الكتاب، لكان فيه الكفايه، ولكن الرجل مطبوع على، حب الكفاح في سبيل الإيمان والعلم، فهو يدعو إلى ذلك بسلوكه ولسانه وقلمه، لم يفتر عن هذا الكفاح حتى لحق بالله. وقد ترك فيما ترك : " قواعد الإسلام " ولا يقل هذا الكتاب روعة عن القناطر، وإن كان كتاب القواعد لم يعن بالناحية الفلسفية للشريعة الإسلامية، وإنما عنى المؤلف فيه بالتحليل والتعليل والتدليل، ويعتبر هذا الكتاب من أهم ا لمراجع في قواعد الإسلام الخمسة، وهو كتاب ضخم قل أن تجد في موضوعه مثله.

وشرح قصيدة الشاعر العبقري أبي نصر الملوشائي، المسماة بالنونية، والتي مطلعها.

سلام على الإخوان في كل موطن .....

وإنها لمتعة للنفس والفكر والعقل أن تقرأ شعراً لأبي نصر يقدمه إليك أبو طاهر ويشرحه لك.

وَجَمع المناقشات التي كانت تدور بين أئمة العلم فنسقها وقدمها في كتاب قيم، يشتمل على ثلاثة أجزاء ...

وقد أهتم بفريضة الحج اهتماماً خاصاً، فأفردها بكتاب فريد في نوعه وأسلوبه وروحه، وحسبك أن تعرف أنه كتب بروح أبي

طاهر الجيطالي.

جمع كثيرا من الرسائل، ونظم عدداً من القصائد، هي إلى معاني الفلسفة أقرب منها إلى أغراض الشعر.

إن الذي يقرأ الفقرات السابقة يحسب أن العمل في حقل العربية والإسلام لم يترك للفيلسوف الكبير وقتاً أو مجالا يعمل فيهما في غير هذا الحقل ...ولكن الواقع هو غير ما يظنه هذا القارئ الكريم، فإن الفيلسوف بلغ في العلوم الرياضية المعروفة في ذلك الحين مبلغاً يقصر عنه الأقران، وقد ألف في الحساب والهندسة.

وإلى هذا الجهد المتواصل في التأليف كان يشتغل بالتدريس، وكان لا يتوقف عن دروس الوعظ والإرشاد ولا يقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان يعيش في مجتمعه عيشة حقيقية، يعرف ما يقع فيه من هدى وظلال، ولذلك فقد كان يحارب أسباب الضلال حرباً متصلة لا تتوقف ولا تهادن، سواء كان هذا الضلال زيفاً في العقيدة، أو انحرافاً في العمل، أو استهانة بالواجب، أو جهلا بأحكام دين الله، وقد كان يغشى الأسواق، ويدخل المجتمعات يبين للناس الحق من الباطل والحلال من الحرام حتى قال بعض العابثين : إن أبا طاهر قد علم التجار جميع وسائل الغش، يعنون أنه ينهاهم عنها فتعلموها منه.

إن عزائم الأبطال لا تضعف ولا تتوقف عند حد، وهؤلاء الأعلام حين يخدمون الإسلام ويخدمون الأمة، ويخدمون الوطن، يخدمونها في جميع الوجهات، وبجميع القوى والإمكانيات، قلم

لا يكف عن الكتابة، ولسان لا يكف عن الهداية، وسلوك لا يحيد عن صراط الله السوي، وجوارح لا تعرف التعب أو السأم ... إنها جهود جبارة متواصلة متتابعة متعاونة ... سافر إلى طرابلس في تجارة، وكانت شهرته بلغت الآفاق، فجمع له الأمير عدداً من العلماء، فيهم قاضي المدينة، للجدال والنقاش، فعجزوا عن الوصول إلى شأوه، والتطلع إلى الأفق السامي الذي يحلق فيه، حتى تحداهم فقال : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا. فحقد عليه القوم، ولم يزالوا بالأمير حتى سلبه ماله وسجنه، وبقى في السجن حتى شفع فيه " ابن مكي " أمير قابس، فأطلق سراحه ...

أقام بفرسطاء مدة من الزمن، تبلغ تسع سنوات، يقوم فيها بالتدريس، ويقيم ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكافح الأمراض الاجتماعية التي تتسرب إلى الأمة بطرق خفية، حتى إذا كثرت استعلنت وفشت ! ... سمع يوماً بأن خمراً عند أحد الناس، فخرج إليه في جمع من الفقهاء والعلماء وأهل الصلاح ليغيروا هذا المنكر، ويطلبوا من هذا المنتهك لحرمة الإسلام أن يكف عن معصية الله ويتوب إليه، ولكن أهل العاصى غلبتهم قوة القرابة عن أمر الله، وساقتهم عصبية الدم إلى معارضة حكم الدين، فاعترضوا طريق الشيخ وأصحابه، وامتنعوا عن تسليم المجرم الذي انتهك الحرمة، وأعلن المعصية ؛ فرجع الشيخ آسفا، وعزم على الارتحال،ولما تعلق به الناس يمنعونه من الرحيل، ويحاولون دونه قال لهم : لا أقيم في بلد لا يقام فيه الحق، ويمنع المؤمنون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وهكذا انتقل

من جبل نفوسة إلى جزيرة جربة، وكان لانتقاله ذلك أثر أكبر من إقامة الحد. وأخذ العاصى بالعقاب، فقد أعلنت المدينة براءتها من المجرم وأهله، وقطعوا التعامل معه، ونبذوه كما ينبذ المصاب بالأمراض السارية، فضاقت بالرجل وأهله الأرض، وأعلنوا توبتهم، ورجعوا يلتمسون السماح، ويطلبون تنفيذ حكم الله، وطأطأوا تلك الرؤوس التي نفخ فيها الشيطان فارتكبت أكبر جريمتين في شرع الأخلاق والدين، وهل أكبر من شرب الخمر ودعوى الجاهلية ...

زار بلده جيطال فوجد العلامة أبا ساكن عامر بن علي الشماخي في المسجد يدرس بعض الكتب بعد صلاة العشاء. والعلامة أبو ساكن من خريجي مدرسة أبي موسى الطرميسي التي درس فيها الجيطالي، وإن كان الجيطالي أسبق من أبي ساكن في حلقة الدرس فهما زميلان بالنسبة إلى المعهد وإن لم يجتمعا في عهد الدراسة.

وجلس الفيلسوف الكبير إلى العالم الكبير، وجرى بينهما النقاش الممتع الذي يجري بين صديقين ذكيين عالمين، واستمر بهما الحديث إلى أن قاما إلى صلاة الصبح، وأجاب العالم الكبير عن جميع الأسئلة التي وجهها إليه الفيلسوف الكبير، فلم يتوقف في مناقشة، ولم يع بجواب، فكان أبو طاهر يقول بعد ذلك إذا سئل عن أبي ساكن الشماخي : " عامر وحيد دهره " والرجل الذي ينجح في امتحان يعقده له أبو طاهر، ويناقشه فيه ليلة كاملة حقيق أن يكون وحيد دهره على أن الآثار التي خلفها الشماخي كافية للدلالة على سموق منزلته، وارتفاع مكانته.

لقد عاش الجيطالي في القرنين السابع والثامن، يملأ الدنيا علماً، وحكمة، وخلقا، ودينا وتوفي سنة خمسين وسبعمائة، بعد أن ضرب مثلا رائعاً للمسلم المكافح الذي لا يعوقه شيء عن بلوغ أنبل الغايات واسمى المقاصد ...

أبو ساكن عامر الشماخي

" يفرن " : أسم يطلق الآن على مجموعة من القرى متجاورة، وقد كان عدد منها متصلا يكون مدينة عظيمة تسمى " البيضاء "، ومن هذه المجموعة تنتأ قرية إلى الشمال الغربي تسمى " ديسير " كان لها تاريخ حافل، وبها الحصن العظيم الذي يتكون من نحو ألف وثمانمائة غرفة بعضها فوق بعض، خربته الدولة التركية عند احتلالها للجبل، كما خرجت كثيراً غيره من القصور الشاهقة التي تعتبر معاقل للتحصن ومخازن للحفظ.

وتقع هذه المدينة الكبرى بقراها التابعة لها على منبسط من الجبل قد تنتأ فيه ربوة غير عالية أو ينحدر فيها واد غير عميق، والمنطقة التي تقع فيها هذه المدينة تعتبر من أجمل مناطق الجبل وأخصبها أراضاً، وأجودها تربة، وألطفها هواء، وأعذبها ماء.

في هذه المدينة الكبيرة الجميلة الغنية نشأ أبو ساكن عامر بن علي بن عامر بن بَسِيفَاوُ الشماخي.

نشأ طفلا يطل الذكاء من عينيه، وتظهر النجابة على مخائله، ويرى الصلاح على مسلكه، وهو صغير أرسله أبوه

ليرعى مع رفاقه له فمر بهم أعرابي وجد عامراً ممسكا برسن البقرة يتتبعها خطوة خطوة، هى تنتقى الأعشاب وتختار أنواع الكلأ، فقال له الأعرابي : لماذا تمسك برسن البقرة دون رفاقك هلا أرسلتها واسترحت ولعبت مع أقرانك ؟ فقال عامر أخشى أن تغشى زروع الناس، وعجب الأعرابي من خلق هذا الطفل الصغير ؛ فلما دخل المدينة ذهب إلى أبي عامر يقول له : إن ولدك يصلح للدراسة لا لرعي الأبقار، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياة هذا الطفل النجيب، وفي اليوم الثاني أرسله أبوه إلى المدرسة بدلا من مرعى البقرة ...

وبعد أن تلقى المباديء الأولى في مدرسة " البَخابِخَة " التي كانت تقوم برسالة التعليم لقرون طويلة، التحق بالمدرسة العظيمة، مدرسة أبي موسى عيسى الطرميسي، هذه المدرسة التي خرجت عدداً غير قليل من أعلام الدين والفكر وفيها درس، ومنها تخرج، وكان أحب الطلاب إلى الشيخ الكبير وآثرهم عنده، حتى خصه دون بقية الطلاب النجباء يحمل الأمانة، فقال له : لقد أبلغت إليك هذا الدين سالماً دون أن تشوهه الخرافة أو البدعة فإن حافظت عليه بقي، وإن أهملته ضاع

بعد أن أتم دراسته رجع إلى " يفرن " وكون هناك مدرسته الكبرى التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، في نقطة متوسطة بين قرى " يفرن " وبدأ كفاحه في نشر العلم، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الثقافة والوعي الديني والخلقي بين الناس مدة من الزمن، ثم انتقل إلى مدرسة أبي زيد المزغورتي، وتعاون مع زميله وصديقه الشيخ أبي عزيز في حمل الرسالة

المقدسة حتى استقامت، ووجد أبو عزيز من طلابهما من يساعده على أداء هذا الواجب، فانتقل أبو ساكن إلى "مِيتيوَنْ " في أرض الرحيبات، وهنالك بقى ثلاث عشرة سنة، استطاع خلالها أن يرجع إلى تلك البلاد عهدها الزاهر في العلم والفضل والدين، ثم رجع إلى مدرسته العظيمة في " يفرن " وبقى بها إلى ان اختاره الله للرفيق الأعلى.

لقد حرص أبو ساكن أن يكون عند حسن أستاذه، فبذل جهداً لا يقل عن جهد شيخه، وترك من الأثر مالا يزال إلى اليوم.

قد يخطر سؤال على بال أحد القراء الكرام فيقول : لماذا ينتقل هؤلاء العلماء من مكان إلى مكان يؤسسون مدرسة في بلد من البلدان وبعد زمن طويل أو قصير ينتقلون إلى بلد آخر فيقومون بنفس الرسالة، ثم لا يلبثون أن ينتقلوا منها.

والجواب على ذلك معروف من قواعد المذهب، فإن أولئك العلماء الأعلام يؤمنون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، وهم لا يستطيعون أن يحاربوا الجهل أو المنكر أو الفساد أو الإنحراف عن بعد، أو بالمراسلة.ولذلك فهم يدرسون المجتمع ويعرفون جوانب الحياة في كل جهة من جهاته، ويلمسون الأمراض التي تصيب الأمة في دينها أو في خلقها. وفي المحل الذي تبدو ظواهر بعض هذه الأمراض يتخذون مراكز علمهم، وينطلق كفاحهم، حتى يستأصلوا الداء ويبيدوا جراثيمه التي تفتك بالأمة، فإذا علموا أنهم قضوا على هذه الأمراض الإجتماعية والدينية الفتاكة، وأمنوا على هذا الجانب من الأمة، ورأوا آثار أعمالهم، انتقلوا إلى

غير ذلك المركز ليقوموا بنفس العمل.

إن أولئك الأعلام كانوا يرون أنهم محاسبون على إبلاغ رسالة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء بها، ولن يعذرهم ربهم أن يعملوا على تبليغها في مكان واحد وهم قادرون أن يبلغوها في أمكنة متعددة، إنهم يلاحقون هذه الأمراض ؛ أمراض الجهل، والانحراف عن دين الله بالزيغ أو الإهمال، كما يحارب أبطال السيف هجوم الأعداء ؛ فما يسمعون بغارة كبيرة أو صغيرة في طرف من أطراف الوطن حتى ينطلقوا إليها.

هكذا كانوا يفعلون، وبهذه السيرة سار أبو طاهر الجيطالي، وبهذه السيرة سار أبو ساكن عامر الشماخي، وبهذه السيرة سار عبدالله الباروني، وبهذه السيرة سار عشرات المشائخ الأعلام من قبل هؤلاء ومن بعدهم وفي عصورهم، لا يفتر عزائمهم إعراض الجاهلين ولا هزء المتكبرين، ولا يقعد بهم حب المال أو الأهل أو القرابة، ولا يألفون الاستقرار والإقامة ؛ فما الحياة في نظرهم إلا رحلة متصلة، لا يهم المسافر فيها المكان الذي يبيت فيه، سواء بات " بيفرن أو بِمزْغورُة أو بِمرْساوَن أو بِلالوُت " ذلك أنه لايريد أن يتأثل مالا أو يبني قصوراً أو ليعيش حياة رغد ورفاهية.

إنَّ نفسه لتتوق إلى ذلك وهو يستعد لها، وإنه ليرجو من الله أن يكون له مايشتهي وفوق ما يشتهي، بعد أن يتم هذه الرسالة الطويلة ويستقر إلى الحياة الوادعة الآمنة التي لا نقله فيها ولا انتجاع..

وعاش أبو ساكن كما عاش أبو طاهر حياة كفاح متواصل لا

ينتقطع، حتى صح لأبي العباس أن يقول فيهما : " وكان – أي أبو ساكن – مع أبي طاهر كفرسي رهان يتسابقان في ميدان ".

ولست أدرى هل يحق لي أن أزعم أن أبا طاهر جلى في ميدان التأليف وأن أبا ساكن جلى في ميدان التدريس، وليس معنى هذا أن مجهود أبي طاهر في التديس كان ضئيلا، أو أن عمل أبي ساكن في التأليف كان قليلا، ليس هذا ما أقصد، فإن أبا طاهر كما أسلفت في الحديث عنه لم ينقطع عن التدريس، ولم يتوقف عن الإرشاد العام، ولكنه مع ذلك قدم لنا ثروة فكرية قيمة، تشغل حيزاً هاماً من المكتبة الإسلامية العامرة، وجهده في هذا الميدان أكثر أثراً من جهده في ميدان التعليم، أما أبو ساكن فقد ترك لنا عدداً من العلماء الأعلام الذين كافحوا الجهل والبدعة والانحراف والفساد، وألفوا مجموعة من الكتب القيمة، وقاموا برسالة التعليم المقدسة، التي تدعوا إليها جميع النبوات، وهو إلى هذا المجهود العظيم قد قدم إلى المكتبة الإسلامية آثاراً قيمة رائعة ولو لم يكن فيها غير كتابه القيم " الإيضاح " لكان ذلك كافياً، يقول أبو العباس عن هذا الكتاب : " وهذا التأليف ما أظن ألف في المذهب مثله، جمعاً وتعليلا، واختصاراً غير مخل، وتطويلا غير ممل ولا مكرر، وهو اعتماد أهل المغرب في وقتنا، خصوصاً نفوسة " هذا ما يقوله أبو العباس عن هذا الكتاب القيم، أما أنا : فإن الإيضاح أحب الكتب إلى نفسي، وآثرها عندى بعد كتاب الله وصحاح الحديث الشريف، وفي جميع مشاكلي العلمية التي تدخل في نطاق أبحاثه أرجع إليه قبل أي كتاب، على كثرة ما ألف في المذهب من نفائس وأعلاق ...

أخذ عنه العلم عدد غير قليل من العمالقة العظام، منهم ولده موسى، وحفيده سليمان، وأبو يعقوب يونس بن مصباح، والشيخ بن محمد بن الشيخ، وأبو زكرياء يحيى بن زكرياء، وأيوب الجيطالي، وأبو القاسم البَرَّادي، ونوح بن حازم المرساوني، وأبو عبدالله محمد التّفْجَاني، وأبو الضياء الطرميسي، وغير أولئك من الأعلام الذين لا يستقصيهم العد في مثل هذا المقام ...

أحس أبو عزيز صديق أبي ساكن في الدراسة بدنو الأجل، فبعث إلى صديقه يدعوه إليه وكان أبو ساكن قد قرر زيارة صديقه العزيز، فوافاه في آخر أيام الحياة الدنيا، وتحادث الصديقان العزيزان، وتواصيا بما يتواصى به المؤمنون المتقون، ثم افترقا في دنيا الفناء إلى لقاء في الآخرة سعيد، وقد أفضى أبو عزيز بما في نفسه إلى صديقه، ولما لحق بربه انتقل طلبته إلى أبي ساكن، ولحقوا بمدرسته العامرة.

كان أبو ساكن مثلا يحتذي به في الجد والعمل والخلق الحميد، إنه من اولئك الدعاة الهداة الذين يقيم بهم الله الحجة على العباد في مختلف الأزمان، والمؤرخون يروون أمثلة رائعة عن جده في التعليم، وحرصه على نشر الثقافة والوعي الإسلامي في الأمة، وقيامه بالعبادة الخالصة المتواصلة لربه، والتزامه للسير في الطريقة القويمة، وإحياء لسيرة الصالحين...

وقد أطال الله في عمره الخير، حتى أعياه الهرم، ولكنه مع ذلك لم يكن ليترك ما أخذ به نفسه من إلقاء الدروس وإرشاد الناس، وملازمة المسجد، وقد ذكر أنه صلى بالناس في مصلى

مسجده - وكان الوقت صيفاً - ولما أخذ في الدعاء نزل منه البول دون أن يشعر حتى ظهر من تحته، ووقره الناس فلم يخبروه، فلما فطن إليه ورآه بكى رحمه الله وقال: أطمع من الله أن يطهر منه المصلى، فلم يلبث إلا قليلا حتى تكون سحاب، ونزل مطر غزير طهر المصلى.

" إن لله عباداً لو أقسموا عليه لأبرهم "

لقد كان رحمه الله مؤمنا من أصدق المؤمنين، ومكافحاً في الله من أشد المكافحين، وكان متخلقاً بخلق القرآن، حكيما، وقوراً، عفيفاً، لين العريكة، سهل الخلق، يحب الناس ويحبونه، ويألفهم ويألفونه، إلا أن تنتهك حرمه من حرم الله، فإنه لا يقر له قرار حتى يقوم فيها بأمر الله.

أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى

نشأ في مدينة " يفرن " : هذه المدينة العظيمة التي تتكون من مجموعة قرى لا تخلو إحداها من علم وفضل. ولعل من الخير أن أدع شاهد عيان يتحدث عنه، فقد جلس إليه العلامة أبو العباس الشماخي وسمع منه وناقشه فلندعه يتكلم. قال : " أخذ العلم من عمنا عبدالله الشماخي وغيره، وكان محققاً، وحيد العصر، فريد الدهر، إماماً في العلوم، وكنت سمعت بتونس حاضرة أفريقية من البَيْدَمُورِي، وكان محققاً في العلوم كلها على ما يدعى - وكنت أقرأ عليه، وقد سألني عن الشيخ أبي يوسف وعن حاله فقلت له : بخير. وكان يؤمئذ حياً فقال : ما في تونس أنحى منه، أي أعلم منه بالنحو : وكان بها أقرأ العلوم من

النحو والبيان والمنطق والأصول، وسمعت من فقهاء تونس أخبارا في علو درجته في العلم، وكان طلبته بها ومن أخذ منه يفتخر على غيره، وذكر أنه اختلف مع بعض الأشياخ بها في مسألة في النحو، فأحضر في إثباتها ما يقرب على عشرين شاهداً من أشعار العرب، ثم انتقل إلى " أمُسِينُ " قرية من نفوسة، وأقام بها إلى أن توفى في شوال عام أربعة وتسعين وثمانمائة، وقد جالسته مراراً وباحثته فما رأيت في جميع من لاقيت أكثر استحضاراً منه ؛ لو جالسته يومك ماظفرت بكلمة لحن فيها في إعراب ولا تصريف، ولا يسكت ولو هنيهة، فكل كلامه علم مع سرعة لسان، إن سألته عن مسألة لا ينفصل منها إلا أن تعارضه بسؤال آخر، أما النحو فعشه الذي يعرف كيف يدخل فيه، ويخرج، وأما اللغة والتصريف فيا للعجب، وأما التفسير فلو ادعى أحد أنه ما شذ عليه شيء من التفسير ما كذب، وعلم الحديث أظن أنه يحفظ ما رواه المخالفون والموافقون بضبطه وشكله ومعناه،وعلم التاريخ وتسمية الرواة والعلماء فكأنه حضر معهم وصحبهم، وعلم الرقائق من الوعظ والتذكير فآية، وهو مفزع علمه، والفقه حضرت عنده مراراً يحكم بين الناس فتعجبت من تفصيله، فقلت: لا ينبغى أن يحكم بين الناس إلا مثل هذا، واتيته يوماً زائراً وهو شيخ كبير، فألقيته يدرس تحت شجرة التين فتسمعت فإذا هو يقرأ مقدمة الخوجى في المنطق، وأما القرآن فأظنه يقرأ كتاب الله بالسبع. والبيان والأصول فهما نصب عينيه.

وحضرت مجلسه يوماً وكنت قبل مستشكلا مسألة فلم

أجد من أزال إشكالها فوقعت في المجلس عارضة من غير أن أسال عنها، فباحثته فرأيت منه ما أبهرني وأودعت بعض البحث في إعرابي لمشكل كتاب الدعائم، في أول قصيد الجنائز وغيرها، وذكر لي بعض طلبته أنه بقى في آخر عمره خمسة أعوام ما وضع جنبه على الأرض نائما، طوى الفراش، وكان صائم الدهر، وكانت صدقاته سراً، وكان كثير الصلاة، وعادته يعظ الجالس إليه، أو يقرأ القرآن، أو يدرس ما حفظ من العلوم، أو ينظر في الكتب، وإذا أخذه النعاس تناوم قليلا كذلك.

قال لي : حفظت ابن حريق في اللغة في خمسين يوماً، وكان يدرسه ويدرس المقامات، وكان كثير الحفظ. قلت له يوماً : كدت أن تكون ترجمان القرآن، مارأيت احفظ منك !.. قال عمنا عبدالله بن عبدالواحد لا أصِله في الحفظ. وزرته مريضاً ومعي الحاج محمد بن عبدالله العماني السمائلي وعمنا يونس بن محمد، فتكلما معه في علم الطب فأفحمهما، وقال عمنا : يونس إذا شاب ابن آدم تشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل، فضم شين تشب أظن فأنكر عليه، وأخذ في تصريفها بلغاتها ومصادرها،فكأنه ينظر في إصلاح المنطق لابن السكيت، أو فصيح ثعلب، وبالجملة من لم يره لم ير ما يتحدث به في أخبار العلماء، ومات ولم يترك تأليفاً مع أنه ذو قدوة على التأليف في أي علم أراد، خصوصاً التفسير والحديث ".

إنني اكتفى بمارآه العلامة الشماخي ورواه عن هذا العملاق من عمالقة العلم والدين.

أبو العبَّاس الشماخي

يشرفني أن أقف هنا لأدع الحديث للأمام القدوة أبي اسحاق اطفيش – أطال الله عمره وأبقاه ذخراً للإسلام – قال أبو إسحاق : " وأما البدر الشماخي فهو الإمام المجتهد أبو العباس بدر الدين أحمد بن أبي عثمان بن سعيد بن عبدالواحد بن سعيد بن أبي الفضل قاسم بن سليمان بن محمد بن عمر بن يحيى بن إبراهيم بن موسى بن عامر جد الإمام أبي ساكن عامر بن موسى بن علي بن عامر الشماخي، فهو يجتمع بهذا الإمام في جده فيما يتبادر توفي : رحمه الله على ما ذكره العلامة أبو زكرياء الباروني سنة 928 هـ

وأبو العباس من أعلام العلم الذين نبه لهم شأن عظيم لجدهم واجتهادهم وبلغوا منزلة قصوى في العلم، كانوا بها مناراً يهتدى به، وعلماً يُعتصم به، ويلجأ إليه، إذا ألف وصنف كان آية، وإذا ردت إليه مشكلة كان في حلها غاية، وإذا حضر مجلساً من مجالس العلم كان فيه النهاية، له من التصانيف في عدة علوم كلها تعد من الأمهات، خصوصاً مقدمته في أصول الفقه وشرحها، اختصر المقدمة من كتاب العدل والإنصاف لشمس الدين أبي يعقوب الوارجلاني، فكانت أجمل وأنقي متن في أصول الفقه، وأمتن عنه، وأجدى ماده لمن يريد حفظ قواعد الأصول، وأنى لأراها أحسن متونها شمولا وايجازاً، وشرحها وإن كان مختصراً جداً إلا أنه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق،ومن مراجع تراجم الرجال وتاريخ أهل الحق والاستقامة : كتاب السير له، يظن الذين لاحَّظ لهم من

التاريخ، ولا قدرة لهم على جوب مراحله ودخول ميادينه : إنه كتاب غير مفيد، ولكنهم لا يعلمون أنه ثروة ومادة أخذت من كل ناحية بسبب، واختصت بذكر أساطين العلم والدين. وأتت منهم بعجب، وأني لأطالع هذا الكنز المكنون، والفلك المشحون، ولا أزال اكتشف فيه الاعلاق وجلائل تاريخ الأئمة، ومفاتيح ما غلق من تاريخ الإباضية وسط الأمة الإسلامية بشمال إفريقية ... تاريخ العلم والعمران، وازدهار الدين والإيمان، وهذه الحاشية على مقدمة التوحيد تبدي لك غزارة علمه،ووفرة مادته، وتبحره في فنون الشريعة وعلوم العربية مع صغر حجمها، وقد وضعت لك أيها القارئ الكريم تحت بعض الجمل السامية المعنى سطراً يلفتك إليها، كأنموذج لتحقيقات هذا المصنف الجليل، ونظرياته المعربة عن سلامة ذوقه، وسمو نظره، وبينهما ما يحدثنا عن المصنف الجليل، ونظرياته المعربة عن سلامة ذوقه، وسمو نظره، وبينها ما يحدثنا عن المصنف من حيث نظره إلى الحياة الإجتماعية، نظراً يباين كثيراً من الفقهاء الذين اضعفوا الأوساط، وأوهنوا العزائم ؛ وما وقفت عليه من مصنفات هذا الإمام الجليل إعراب الدعائم سماه " إعراب مشكل الدعائم " وهو من خزانة الشيخ محمد بن عيسى أزبارة، ولعل صوابه ازباره. وأظن أني رأيت له شرحا على متن الديانات نفيساً جداً، واجتهدت في الحصول عليه وقت كتابة هذا فلم أفز به.

ويحدثنا المصنف عن بعض مؤلفاته بالإحالة إليها في مهمات المسائل، أو إلى بسط القول فيها، فهو يقول إن له شرحاً على مرج البحرين لشمس الدين أبي يعقوب، في المنطق،

والحساب، والهندسة، حيث تكلم في خطبة شرح مقدمة الأصول على اسم الجلالة واشتقاقه فقال : قد بسطنا ذلك في شرح مرج البحرين فلينظره الراغب.

وقد تمنى ضياء الدين الثمينى رحمه الله أن يقف عليه فقال في شرح مرج البحرين : غير أني سمعت أن البدر الشماخي علق عليه شرحا عجيباً، ولكنه ضاع، فياليتني كنت له مصيباً، ثم إنه وعد في آخر شرحه على مقدمته أنه إن أنسأ الله له العمر فإنه يحمل له شرحاً يستوعب جميع مباحثه، وذلك سنة ثمانمائة وأربعة وتسعين. وقد أنسأ الله له في العمر إلى تسعمائة وثمانية وعشرين، ولعله وضع لها شرحا مبسوطا كما وعد ولم نقف عليه، ومن لطائف التاريخ أن البدر الشماخي أرخ شرحه هذا على المقدمة بحادثة تاريخية هامة حيث يقول : فرغ منه بتاريخ أوائل شعبان سنة أربعة وتسعمائة، وهو العام الثاني من إخراج المسلمين النصارى من " جربة ". ويعني به إخراج الأسبانيين من الجزيرة بعد أن استولوا عليها، كما احتلوا شطوط المملكة التونسية، وقد وقفت على تفاصيل هذه الواقعة منذ سنين، ولم يتيسر لي قيدها ...

وبعد فإني أرى البدر الشماخي من المؤلفين المكثرين، ويظهر أن له مصنفات في الفروع الفقهية، بيد أنها لم تصل إلينا بل لعبت بها أيدي التلاشى، وعبثت بها عوادى الغواشى، فكانت أثراً بعيد عين.

توفي رحمه الله ببلدة " يفرن " من جبل نفوسة سنة 928 هـ

وعـده العلامة أبو عبدالله محمد بن زكرياء الباروني في الطبقة الثامنة عشر حسب ترتيبه : كل خمسين سنة طبقة.

وأمـا شـيوخه فقـد ذكر فـي تاريخـه بعضـا منهـم : ذكر أنـه أخذ العلـم بتونس المؤنسـة عن الشـيخ البيدمـوري، وعن العلامة الشـيخ أبي عفيف صالح بن نوح بن زكرياء التندميرتي النفوسـي، قال البدر : عنه أخذت بعض العلوم،وكان عهد البدر مزدهراً بالعلم ازدهاراً من كل نواحي الثقافة الإسـلامية والدين، ظهر فيـه أعلام فخام، مثل أبي القاسـم البرادي وأبي يوسـف يعقوب بن أحمد بن موسـى آية من آيـات الله في جميع العلوم الشـرعية والعربية والفلسفية والتاريخ، وكان أعلم رجل بتونس في النحو بشـهادة علمائها، وكثير من تلاميذ الإمام أبي ساكن عامر الشـماخي، فإنـه نبغ منهم جمـع كل منهم بلـغ الذروة العليا : علما وعملا يشار إليه بالبنان، فرحمهم الله ".

انتهـى إلـى هنا ما قاله الإمـام القدوة العلامة أبو اسـحاق اطفيش، وإذا قال أبو إسحاق فليس لقائل بعده أن يقول،ولكنني مع ذلك استسمحه أن أزيد كلمة، وكل ما أريد أن أشير إليه بعد هذا الحديث الممتع الصادق، المحق الجامع. أن أشـير إلى أن العلامة البدر الشـماخي يعد في نظري أحد الأعلام الذين قامت عليهم حركة التأليف منذ الاتجاه الجديد الذي اتجهه طلاب أبي موسـى عيسى بن عيسى الطرميسي.

وإذا كانت تلك الحركة المباركة أتت ثماراً طيبة، وتركت لنا تراثا مجيداً تفتخر به المكتبة الإسـلامية فإن طريقة أبي العباس في

كتابه القديم "السـير" طريقة فريدة ليس لها مثيل فيما عرفناه من كتـب التاريخ. فإن المؤلفين في التاريـخ غالبا ما تتخطفهم حوادث السياسة، ويتتبعون المظاهر الخادعة من حوادث الانقلابات والمعارك العسـكرية وسير الملوك والحكام، ويعتقدون أنهم بذلك قـد أرخو للشـعوب والأمم، والواقع هو أنهم أرخـوا لعدد قليل من النـاس، وثبوا إلى كراسـي الحكم، وتصرفوا في عبـاد الله وأموال الأمـة دون حـق، ولن يعطي ذلـك صورة صحيحة عـن تاريخ أمة من الأمم أبداً، فإن أخبـار الجيوش والمعارك وتحركات الأجناد والقواد، أعمال الحكام الظالمين، ثم السيطرة على الناس والتحكم فيهم، وتحطيم المدن المعاقل، وما يتبع ذلك من مظاهر القوة والسلطان التي تسـتعمل في غير أمر الله، ليسـت هى الصورة الصحيحة لتاريخ وحياة أية أمة ...

وقـد أدرك العلامة أبو العباس الشـماخي هذه الحقيقة فلم ينجرف مع تيار السياسة إلا بمقدار، وإنما قدم لنا الصورة الحقيقية لجانب من الأمة المسلمة، هذه الأمة التي تسكن ما بين " سرت " والمغـرب الأقصى، وهو يقدم لنا المادة الحقيقية لتاريخ هذه الأمة في صـورة العالم الذي يلقي دروس الوعظ والإرشـاد، وفي صورة الرجـل الذي يحمل الفـأس ويذهب إلى الحديقـة ليقلب الأرض. وفي الشـيخ العالم القدوة الذي يسوق بقرته بعد أن ينزل المطر ليقوم بعملية الحرث، وفي الطفل اليتيم الذكي الذي يستوهب جحشـاً صغيراً ثم يتحايل على صاحبه فيبيعه له، وفي المجالس العلمية التي تنعقد في هذا المجتمع أو ذاك، وفي المبالغ التي تجمع لينفق منها على الأقسـام الداخلية في المدارس المنتشـرة، وفي

صورة النصيحة التي تقدمها المرأة المخلصة لزوجها أو لصديقها، وفي سلوكها عندما يتخذ عليها الزوج ضرة أو يقسو عليها في الحياة، وفي حديث البنت الساذجة – عندما تزف – إلى أبيها عن زينتها، وفي نقاش البنت لمتعلمة لأبيها وإدلالها عليه، وفي كفاح المرأة من أجل العلم، وفي صورة الأحاديث والمشاورات والآراء والفتاوي والأعمال، وكل المظاهر التي يعيشها الشعب عيشة حقيقية لمجتمع وأسرة وفرد..

لقد قرأت كثيراً من كتب التاريخ، وقرأت كثيراً من كتب الأجتماع، فلم أجد ما يستهويني، كما أجد ذلك في كتابه " السير " هذا الكتاب الذي يجعلني أعيش حياة واقعية تمتد عشرة قرون.

أرأيت القصصي الموفق الذي يستطيع أن يبعث الحياة في شخوص أبطاله ويجعلك معجبا بهم مهتما بأعمالهم ؟ أنه أبو العباس الشماخي، وقصته هذه هي قصة حياة أمة خلال عشرة قرون، وأبطالها أبطال الحقيقة لا الخيال، حقيقة الحياة بما فيها من متعة، بما فيها من فقر وغني، بما فيها من حركة وصراع ونضال، بما فيها من عمل فردي وجماعي، والأمة الإسلامية في حاجة كبرى إلى كتاب من هذا الطراز يصورون الواقع كما هو، وكما تشهد به الحياة، وكما يجري به التاريخ الواقعي في فلك الزمان الطويل بعيداً عن توجيه السياسة المغرضة، والأطماع الزائفة، والمؤثرات الخارجية، مقصودة أو غير مقصودة.

عبدالله بن يحيى الباروني

يشرفني هذه المرة أن أقف لأدع الحديث لأبي النهضة الحديثة في الجزائر، المؤرخ الأديب الشاعر العالم المصلح أستاذي وشيخي أبي اليقظان الحاج ابراهيم بن الحاج عيسى، أطال الله عمره، ورزقه الصحة والعافية، ومتع المسلمين بحياته الحافلة بعمل الخير، وقول المعروف، والإرشاد إلى سيرة الهداة والمصلحين الصالحين. قال العلامة أبو اليقظان :

" هو العلامة الجليل، الشيخ عبدالله بن يحيى بن احمد الباروني، وقد وصفه قطب الأئمة الشيخ اطفيش في بعض رسائله بقوله : والشيخ عبدالله بن يحيى هو عالم ووارع نفوسة، قال : وأظنه تربى ".

أخذ العلوم الدينية عن العلامة الكبير الإمام الشيخ أبي عثمان سعيد بن عيسى الباروني، نزيل جربة، الذي وافته منيته بها في عام 1282 هـ

ثم انتقل إلى مصر للإغتراف من مناهل الأزهر الشريف، ولا سيما العلوم العقلية منها.

فكان مثالا للجد والكد والتحصيل، والعفة والنزاهة والخلق الكريم، فاكتسب بهذه الصفات مركزا ممتازاً بين علماء وأدباء مصر في ذلك العصر عامة، وبين رفقائه من التونسيين خاصة، من بينهم ذلك السري الماجد العلامة الشيخ سعيد بن قاسم الشماخي الشهير، الذي كان وكيلا للدولة التونسية في مصر سابقا إلى أن توفي فيها.

كان من أصدقائه الكبار : العلامة الجليل، الشيخ أبو زكرياء

يحيى بن أيوب الباروني، الذي هو من بلدة كاباو.

*** مآثره :**

بعد أن أخذ حظه من العلوم العربية بمصر، رجع إلى وطنه جبل نفوسة، فاستقر بفسَّاطُو، وهو على جانب كبير من العلم والورع والاستقامة، وكان له نثر رائق وشعر فائق، وأسلوب جذاب، امتلك بها مجامع القلوب من العلماء والأدباء ورؤساء الدولة العثمانية وولاتها إذ ذاك بطرابلس الغرب، فكانه له بهذه الصفات الحميدة حظ موفور من الوجاهة والقدر والاحترام، ظهرت فيما بعد نتائجه الكبيرة من جلب نفع، ودفع ضر للإسلام ولأبناء وطنه طرابلس، ولا سيما إزاء محنة ابنه العزيز سليمان على مايأتي بيانه، وقد تصدى لنشر العلم والوعظ والإرشاد، ومكافحة الجهل والأمية بين أبناء أمته.

*** تلامذته :**

من أجل ذلك الجد والنصح والدأب المتواصل تخرج عنه تلاميذ نبهاء، من بينهم شبله العظيم الشيخ سليمان باشا الباروني، ومنهم العالم الجليل شيخ الصحافة التونسية مدير جريدة مرشد الأمة، الشيخ سليمان الجادوي.

ومنهم الأديب اللامع الشيخ عمرو بن عيسى التندميرتي صاحب الديوان الشهير: " القلائد الدرية " الذي سكب فيه دموعاً سخينة على الإسلام وأهله، ومنهم النجيب الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أخيه الشيخ عيسى وهو - فيما عبد - أبو زكرياء، مفتى لالوت وتوفي في عام 1324 هـ ومنهم ولداه

الذكيان الشيخان أحمد ويحيى وغيرهم ...

*** مؤلفاته :**

كما أخذ حظه من تأليف الرجال، فإنه أخذ حظه كذلك من تأليف الكتب، وقد رأينا من تأليفه رسالة قيمة في التاريخ : " سلم العامة والمبتدئين " وهى كما سمها - حقا - سلم العامة والمبتدئين للعروج بهم إلى شواهق الرجال الكبار.

ومنها ديوانه الشهير " بديوان الشيخ عبدالله الباروني "، وهو لعمريمرآة انعكست فيها أشعة علمه وأدبه وثقافته وخلقه الكريم في سائر أطوار حياته.

وعظ فيه وأرشد، ونصح وذكر، وأنعش به روح الدين والفضيلة، سكب فيه دموعه السخينة، وأجج فيه عواطفه الملتهبة نحو إخوانه في الدين، امتدح فيه الرسول الكريم، ونوه بالعلماء والصلحاء، وأشاد بأولى العدالة والعفة والنزاهة من القضاة والأمراء والرؤساء، ورثى بدموعه الحارة الراحلين من أهل العلم والصلاح والإصلاح. " إنتهى

إن شيخ الصحافة الجزائرية، وأبا النهضة الحديثة فيها العلامة، أبا اليقظان، لم يقف عند هذا الحد من ترجمة الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني وإنما غلب عليه طبع الأديب الفنان، فأخرج الصورة كاملة الإطار لحياة هذا المصلح الكبير، ولم يهمل الجانب الأدبي منها، ولذلك فقد استمر يتحدث عن الناحية الأدبية من هذه الشخصية العظيمة. ولولا أنني عازم على الرجوع إلى هذا الموضوع من قريب إن شاء الله أن فأقدم

دراسة أدبية متواضعة عن عدد من الأدباء أمثال الشيخ عبدالله، والشيخ عمرو بن عيسى، وأبي نصر وغيرهم، لولا أنني عازم على ذلك لنقلت لك أيها القارئ الكريم بقية هذا الفصل الرائع الذي كتبه أبو النهضة الجزائرية وشيخ صحافتها، وإمام شعرائها وأدبائها في كتابه القيم " سليمان الباروني باشا في أطوار حياته".

وكما لا يجد القائل مجالا للحديث بعد أبي أسحاق، فإنه لن يجد ما يقول بعد أبي اليقظان وهل يترك أبو اليقظان مقالا لقائل ؟ ...

ولكنني رغم كل ذلك، ومع يقيني بأن حديثي سيكون تافها مملا بعد هذا الفصل الرائع من قلم شيخ الصحافة العربية في الجزائر الإسلامية التي ناضلت الاستعمار الغاشم، وناضلت الفساد الاجتماعي المستحكم، وناضلت الجمود الديني المتعصب ؛ ناضلت كل تلك القوى متظافرة، وانتصرت عليها، لأن الحق لا ينهزم – وإن طال أمد الكفاح – مهما كانت قوى الباطل والطغيان.. إن الباطل قد ينتصر في معركة أو معارك، ولكنه لا ينتصر أبداً في نضاله الدائم مع الحق والعدل والحرية، مع المبادئ والمثل التي نزلت بها الشرائع وقدستها الأديان، واستجاب لها العقل والطبع.

إنني أريد أشير إلى أن العلامة عبدالله الباروني كان مثلا للمؤمن الصادق الذي يكافح من أجل العقيدة، وهو بهذه الروح القوية، والعزيمة الصادقة، والإرادة التي لا تنثني ولا تضعف ولا

تخور، يتعقب الباطل أينما كان، سواء كان الباطل في صورة جهل مطبق على سكان ناحية من الوطن، أو كان في صورة استعلان للعاصي، ومجاهرة بها، دون خوف من الله، أو حياء من المؤمنين، أو كان في صورة طغيان حكام، وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة، فاطغاهم البطر، فاستذلوا الناس، عبثوا بالأمانة..

إنه يتعقب الباطل سواء كان في هذه الصور أو في غيرها من الصور.

يتعقبها بالموعظة الحسنة، والسيرة الصالحة، والتعليم الصحيح، والأمر بمعروف يدعو إليه الإسلام، والنهي عن منكر ولو ألفه الناس.

فإذا أنس في مكان أن الصلاح يغلب على أهله، وأن الاستقامة هي الطريق التي يسير عليها الناس، ورأى استجابة وإذعانا للحق، وسلوكا للمحجة، انتقل إلى غير ذلك المكان ليبدأ الكفاح من جديد.

وقد بدأ كفاحه في " كاباو " ثم انتقل إلى " جادو " وذهب إلى " يفرن" فجدد رأية البخابخة العظيمة، ولم ينتقل من " يفرن " حتى بدأ الطليان يزحفون على الوطن الحبيب، ويحتلون أراضيه رقعة بعد رقعة، وكان يدعو الله ويلح في الدعاء أن لا يرى وجوه العدو، وأن لا يكون في بلد يحتله أعداء الله، فلما اقتربوا من " يفرن " رجع إلى " جادو " فلما بدأوا يفكرون في احتلال جادو رجع إلى كاباو وهنالك توفي إلى رحمه الله قبل أن تدنس أقدام أولئك العلوج هذا البلد الكريم، واستجاب الله دعاء الشيخ، فتوفاه إليه

قبل أن تقذى عيناه الكريمتان برأى أعداء الله - أعداء الوطن، وأعداء الأمة ...

إن الطريقة التي سلكها عبدالله الباروني هي نفس الطريقة التي سلكها من قبله كثير من المشائخ الذين لم يكن العلم عندهم مجرد نظريات وأقوالا، وإنما كان العلم عندهم تطبيقاً وتنفيذاً لمقتضاه وسيرة به، وقد رأيت من قبل سيرة أبي موسى، وسيرة أبي طاهر، وسيرة أبي ساكن، وسير كثير من الأعلام، الذين حافظوا على الإسلام نقياً نظيفا، كما جاء عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

نظم التربية والتعليم

ينقسم الناس في المجتمع الإباضي إلى قسمين كبيرين هما : عوام، ومتعلمون " أو طلبة " والمتعلمون ينقسمون إلى أربعة أقسام :

1 - العزابة.

2 - العرفاء.

3 - التلاميذ.

4 - المستمعون.

* فالعوام هم الناس الذين يشتغلون بأعمال الحياة، لا يرتبطون بميدان التعليم أو القيام بمهام دينية، ولو كانوا من فطاحل العلماء. * والعزابة هم هيئة محدودة العدد، تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاحاً، ويشترط فيهم شروطاً معينة، ويجب أن يكونوا من حملة كتاب الله، وأن يكونوا مروا بالمنهج الدراسي، فقطعوا مراحلة مرحلة مرحلة، إلا إذا تعذر ذلك – وهذه الهيئة تقوم بالإشراف على الشؤون الإجتماعية للأمة، وعلى الأمور الدينية، من رعاية المساجد، والقيام بوظائف الصلاة، كالإمامة والأذان والتصرف في الأوقاف، والإشراف على التعليم، وما إلى ذلك، وهي في زمن الظهور أو زمن الدفاع تكون مجلس الشورى

للإمام، وفي حالتي الكتمان أو الشراء تمثل سلطة الإمام، ويختار مجلس العزابة شيخاً لهم من بينهم، يكون غالباً أعلمهم، وإن لم يكن أسنهم، وهو الذي يمثل هذه الهيئة في جميع أعمالها، وينفذ قرارتها، ويتكلم باسمها ...

وبما أن هذه الفصل عقد للجانب العلمي سوف أتحدث عن هذا الجانب الهام.

* تتكون هيئة التعليم ممن يأتي :

1 - الشيخ : وهو شيخ العزابة أو من ينوب عنه.

2 - عريف أوقات الختمات.

3 - عريف الطعام.

4 - عريف تعليم القرآن الكريم.

5 - عريف تنظيم أوقات الدراسة.

* ويتكون التلاميذ ممن يأتي :

1 - طلبة قرآن.

2 - طلبة فنون العلم والأدب.

3 - مستمعون.

مهام الشيخ : بالإضافة إلى مهام الشيخ باعتباره رئيساً للعزابة، وأقوى شخصية تنفيذيه في شئون البلد – العامة والخاصة – فإنه المسؤول الأول عن قضية التعليم.

* وتتلخص أعماله التعليمية فيما يلي :

1 - عليه اعتماد سير الدراسة، ويجب أن تخصص له أوقات يدرس فيها للطبقات العليا من التلاميذ، ويساعده في مهمته هذه بعض العلماء الآخرين لاسيما حينما يكون عدد الطلاب كثيراً، ومستوياتهم العلمية مختلفة.

2 - يتولى تولية العرفاء وفصلهم من وظائفهم.

3 - يفصل في جميع المشاكل التي تقع في المدرسة، سواء كانت بين التلاميذ أو بين العرفاء، أو بينهم وبين التلاميذ، وفصله نهائي لا يطعن فيه ...

4 - يعقد ندوات ثقافية بعد كل ختمة ويدير فيها المناقشات، وله أن يحيل الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه إلى بعض الطلاب، كما له أن يكلف غيره بإدارة هذه الندوات.

5 - يتحتم عليه أن يقوم قبل الفجر بوقت كاف، ثم يستفتح لتلاوة القرآن الكريم وعلى جميع الطلاب أن يحضروا هذا الاستفتاح الذي ينتهي بصلاة الفجر.

6 - عليه أن يقوم بدرس أو درسين في الأسبوع، يخصصهما للأخلاق والدراسات الإجتماعية، واستعراض سير الدراسة في الأسبوع ؛ وعلى جميع التلاميذ بمختلف مستوياتهم أن يحضروا هذا الدرس. ويحق له أن يستوحي موضوع الدرس من سلوك الطلاب أو العرفاء خلال الأسبوع إذا صدر من أحدهم ما يستلفت النظر، سواء كان ذلك مما يذم أو مما يمدح.

7 - له وحده حق قبول الطلبة الجدد في الاقسام الدراسية أو رفضهم، فإذا ورد على المدرسة طالب جديد نظر العرفاء في أمره،

فإذا كان عابر سبيل عومل معاملة الضيف، فسمح له بالمأوى والأكل حتى يسافر، وإذا كان يريد الالتحاق بالمدرسة ونظامها الداخلي عرض أمره على الشيخ، فإذا ثبت لديه أنه حسن السيرة والسلوك، متمسك بدينه أمر بقبوله وإذا ثبت أنه غير محمود السيرة أمر برفضه، فإن جاء من بعيد ولم يعرف حاله فإنه يترك في الوقوف، ويسمح له بالسكنى والأكل مؤقتاً حتى يعرف حاله فيقبل أو يرفض.

*** العريف المكلف بالختمات :**

نستطيع أن تطلق عليه ضابط المدرسة، وهو أقوى شخصية بعد الشيخ، وأهم عنصر في التربية، ويتلخص عمله في المهام الآتية :

إعلان انتهاء الدورة الصباحية : وذلك بأن يدعو جميع الطلاب إلى حضور دعاء الختام، فيدعو أسن القوم، وإذا انتهى الدعاء قام الطلاب.

وحضور هذا الدعاء الختامي حتمي.

الدعوة إلى حضور ختمة المغرب : بعد صلاة المغرب ينادي الطلاب إلى الختمة، فيجتمعون إلى أكبرهم سناً، فإذا استداروا في الحلقة استفتحوا للقراءة، فيتلو قارئان ما تيسر من كتاب الله إلى وقت صلاة العشاء الأخيرة، فيدور بينهم دعاء الختام.

وحضور هذه الخاتمة واجب حتمي.

اختتام المذاكرة الليلية : بعد صلاة العشاء يترك الطلاب

في مذاكرة حرية مدة ليست طويلة، ثم يدعوهم إلى الختمة، فيقرأ أحدهم آيات من كتاب الله، ويدعو دعاء خفيفاً، ثم يلقي أحد المقتدرين كلمة مناسبة في التوجيه والإرشاد، كتوجيه بعد كفاح يوم كامل، ويستحسن أن تستوحى تلك الكلمة من الآيات التي سبق أن قرئت ؛ وبعد هذه الكلمة يختم بالدعاء ويقوم الطلبة إلى النوم، وحضور هذه الختمة ليس واجباً حتمياً، وإنما هو واجب كفائي يكفي فيه حضور بعض الطلاب.

إعلان ابتداء النوم في الظهيرة : بعد أن يتناول الطلاب غذاءهم في القسم الداخلي يجب أن يناموا، وعلى هذا العريف أن يعلن إليهم ذلك، ولا يحق لأي واحد منهم أن يتخلف عن نوم القيلولة، لأن ذلك قد يكون ذريعة لعدم القيام في الليل.

إعلان ابتداء النوم الليلي : بعد كلمة الختام يعلن العريف إلى الطلبة وجوب ذهابهم إلى مضاجعهم، ولا يحق لأي واحد منهم أن يتلكأ أو يحدث ضوضاء تؤثر على راحة الآخرين، وقد يسمح لبعض كبار المتعلمين في المراحل النهائية أن يأخذوا كتبهم ويبتعدوا عن عنابر النوم ليزدادوا مذاكرة، على شريطة أن لا يؤثر ذلك مطلقاً في راحة بقية الطلاب.

*** عريف الطعام :** وهو المشرف على الأكل حسب تعبيرنا في الوقت الحاضر، وتتلخص مهماه فيما يأتي :

1 - ترتيب جلوس الطلاب عند الأكل وتنظيمهم، سواء كان ذلك في مطعم المدرسة العادي أو كان خارجه، كما إذا كانوا في رحلة مدرسية أو استضافهم أحد الناس.

2 - على الطلاب أن يحضروا إلى الأكل باللباس الكامل وهو الزي الخاص بهم، وعريف الطعام هو المسؤول عن مراقبة ذلك.

3 - تسجيل الغياب عن الطعام ومعرفة أسبابه.

4 - ملاحظة سلوك الطلاب ومدى تطبيقهم لآداب الأكل المعروفة حينئذ.

5 - إعلان الانتهاء من الأكل، فلا يحق لأي طالب أن يقوم من مكانه،أو يغسل يديه إلا بعد أن يعلن ذلك عريف الطعام وذلك أن العريف ينظر حتى إذا تحقق أن جميع الطلاب اكتفوا ورفعوا أيديهم نادى بدعاء الختام، فيدعو أكبر القوم، وبعده ينصرف الطلاب.

6 - يشرف على توزيع الطعام والفاكهة أو الطرف.

7 - يقسم بمساعدة من يشاء الهدايا أو الطرف، من الفاكهة التي يؤتي بها إلى المدرسة بالسوية بين المدرسين والعرفاء وجميع الطلاب، سواء كانوا في الأقسام الداخليه أو كانوا طلاب منازل.

8 - يشرف على تنظيم الوجبتين الإضافيتين : وذلك أن لهذه المدارس تقليداً رائعاً ؛ وذلك أنها تقدم وجبتين خفيفتين : إحداهما عند الاستراحة الصباحية، والأخرى عند الاستراحة المسائية بعد صلاة العصر، ويكفي في هذه الوجبة الخفيفة أن تكون فاكهة، أو تيناً أو بلحا أو ما شابه ذلك. والطريف فيها أن الطلاب عند بدء الاستراحة سواء في الصباح أو في المساء ينقسمون إلى مجموعات، على كل مجموعة عريف أو نقيب، يكون أنبه المجموعة وأذكاها، ويستحسن أن يكون أسنها، فإذا قدمت فرقة

التوزيع تعين على كل فرد أن يلقي ثلاث مسائل في أي من الفنون شاء، ابتداء من العريف أو النقيب، فمن قام بهذا الواجب الخفيف أعطى له نصيبه، ومن لم يستطع حيل دونه ودون هذه الوجبة فإذا استطاع أن يهيئ موضوعه قبل أن تنصرف فرقة التوزيع وذكر مسائله أعطى له نصيبه، وإلا حرم منه في ذلك اليوم، ولا يجوز لأي واحد منهم أن يعيد ما يقوله زملاؤه.

وعريف الطعام هو المسئول عن تنظيم هاتين الوجبتين، حتى ينتهى منها الطلاب في اسرع وقت، وذلك بأن يجعل المجموعات صغيرة، ويعين نقباءها من أول السنة الدراسية، ثم يجعل نظاماً متبادلا لفرق التوزيع، بحيث يقوم عدد من الفرق كل يوم بهذه المهمة على التبادل، أعني أن المجموعات هى نفسها تقوم بالتوزيع حسب جدول يومي يضعه عريف الطعام.

* **عريف أوقات الدراسة** : قريب بما نسميه اليوم بعريف الفصل، وتتلخص مهامه فيما يأتي :

1 - تسجيل التأخر عن وقت بدء الدروس أو بدء الحفظ.

2 - حفظ النظام في الفصول الدراسية.

3 - تشغيل الطلاب بواجباتهم عند غياب المدرس وفي أوقات المذاكرة..

*** الأوقات التي لا يجوز للطالب أن يتخلف فيها بغير عذر شرعي:**

1 - الاستفتاح للتلاوة قبل الفجر.

2 - دروس الدورة المسائية، وتبتدئ بعد صلاة الظهر.

3 - تلاوة ما بين المغرب والعشاء.

4 - الأوقات المعينة للدروس الصباحية.

5 - دروس الوعظ والإرشاد العامة في المسجد.

6 - دروس الأخلاق والاجتماعيات.

7 - الندوة الختامية بعد انتهاء الدورة الصباحية : يتحتم أن يجتمع الطلاب على الشيخ أو أكبر مساعديه، وقد أعدوا عدداً من الأسئلة لتلقى على الشيخ، وقد تناول تلك الأسئلة مسائل علمية أو مسائل اجتماعية، أو تتعلق بالأحداث التي تقع في البلد.

وللشيخ أن يجيب عليها أو أن يحيلها إلى من يشاء من العلماء أو الطلبة، ولكل من في المجلس حق الملاحظة والاشتراك في الحديث وزيادة الإيضاح والشرح إذا رأى أن الجواب غير كاف.

*** عريف حفظ القرآن الكريم :**

قد يكون واحداً، وقد يتعدد حسب اللزوم، وهؤلاء العرفاء في الواقع هم القائمون بتعليم القرآن، ويشترط في هذا العريف أن يكون حافظاً لكتاب الله حفظاً جيداً عارفاً برسم المصحف، وتتلخص مهامه فيما يلي:

1 - تكون عليه حلقة من الطلاب الذين يحفظون القرآن الكريم لا تزيد عن عشرة، ولا تقل عن اثنين، وقد تكون أكثر من ذلك إذا كان عدد العرفاء قليلا.

2 - عليه أن يتولى الإملاء عليهم حين الكتابة، وأن يستعرضهم عند الاستظهار، وأن يصحح ألواحهم بعد الكتابة.

3 - يجعل على الفرقة نقيباً يكون واسطة اتصال بينه وبين الفرقة، فلا يبدأ الاستعراض إلا أذا أخبره النقيب أن كل الطلاب قد حفظوا ألواحهم، ولا يبدأ التصحيح إلا إذا أخبره النقيب أن جميع الألواح قد جفت.

4 - لا يحق لطالب أن ينتقل من عريف إلى عريف آخر إلا بموافقته.

5 - على العريف أن يختبر طلابه فيما حفظوا من أسبوع لأسبوع.

6 - طلبة القرآن الكريم يخضعون لاشراف عرفائهم في أوقات الدراسة، ويخضعون لعريف الطعام في الأكل، ويخضعون لعريف الختمات في النوم.

7 - طلبة القرآن يتحتم عليهم حضور دروس الأخلاق الأسبوعية فقط.

8 - عريف حفظ القرآن هو المسئول عن الناحية الخلقية لتلاميذه، وعليه أن يرفع إلى الشيخ الحالات المستعصية التي لا يتمكن من علاجها.

*** نظم الدراسة :** تنقسم الدراسة إلى مرحلتين :

الأولى : يحفظ فيها الطلاب القرآن الكريم، ويتعلمون القراءة

والكتابة ومبادئ الحساب.

الثانـي: يدرس فيهـا الطلاب أنواع المعـارف المعروفة في ذلك الحين، ولا يقبل الطالب في المرحلة الثانية إلا إذا حفظ كتاب الله، فحفظ القرآن الكريم بمثابة شهادات اليوم.

* **أقسام الطلاب :** ينقسم الطلاب إلى ثلاثة أقسام :

1 - طلبة القرآن

2 - طلاب علوم

3 - مستمعون.

1 - طالـب القـرآن وإن كان يتمتـع بكثيـر من الحقـوق لكنه لا يعتبـر تلميـذاً رسـميا إلا بعـد أن يسـتظهر القـرآن الكريم، ولذلـك فهو لا يطالب بالزي الرسـمي الموحـد للطلاب، ولا يحق له الاسـتفادة من خصائص الطلبة، وإنما توفر له المدرسـة المأوى والأكل وأوقات الدراسة.

2 - طالـب العلـوم يشـترط فيـه أن يكـون حافظـا للقرآن الكريم، حسـن السيرة والسـلوك، محافظا على دين الله، معمراً للمسجد، ملتزماً بلبس الزي الرسمي الموحد للطلاب.

ولهـؤلاء الطلاب حقـوق وامتيازات لا تعطـى لغيرهم، منها صالـة خاصة بهم تعتبر كنادٍ لهم لا يجـوز لغيرهم أن يدخلها، ومنهـا مكتبة خاصة بهم أيضـا، ومنها الندوات التي تعقد في صالتهـم، ومنها الـدروس الخاصة التي يلقيها عليهم الشـيخ أو بعـض العزابـة، ومنهـا أنهم يسـتقبلون فـي ناديهم بعض

الشـخصيات ليستفيدوا منها ولا يحق لغيرهم حضورها، وهذه الاسـتثناءات بطبيعة الحال لا تتناول العزابة، لأن العزابة قبل أن يكونـوا عزابة كانوا تلاميذ ومروا بجميع هذه المراحل، ثم هم من الناحية الأدبية يعتبرون مشرفين على الجميع.

وهـم فـي دراسـتهم العلمية ينقسـمون إلى فرق حسـب مسـتوياتهم، وللشـيخ أن يعـين مدرسـين لبعض هـذه الفرق ولكن يحتم عليهم جميعا أن يحضروا الختمات العامة والدروس العامة.

3 - **المسـتمعون :** ويتكـون هذا القسـم غالبـا من طلاب فاتتهم مراحل الدراسـة فلم يستطيعوا أن يسايروها، إما بعدم حفـظ القرآن الكريم أو عدم التمكن من المواظبة، أو غير ذلك من الأسباب، وهم مع ذلك مشغوفون بالدراسة، ولهؤلاء الطلاب حق الاسـتفادة من الدروس التي شاءوا دون أن يتقيدوا بنظام، ولهم أيضاً حق في الوجبتين الخفيفتين عند الاسـتراحة الصباحية، أو الاسـتراحة المسـائية، ويطلق على هذه الفئة في النظام الذي وضعـه العلامـة أبو عبـدالله محمد بـن بكر كلمـة – العجزة – ويوصي العالم الكبير بالعطف على هؤلاء ومسـاعدتهم كل المسـاعدة، لاسـيما أولئك الذين تعطلوا عن دراسـتهم بسبب إصابـات، كالعمـى أو غيره مـن الأمـراض. وإذا كان بعض هؤلاء ا لعجـزة قد ابتلى بالعجز البدني عن الكسـب، والعجز العقلي عن التعلم، فلا يرى أبو عبدالله مانعاً من الانفاق عليه كما ينفق على الطلاب النظاميين، مراعاة للجانب الإنساني.

أعتقد أننـــى أعطيت القارئ الكريم صورة عــن نظام التعليم ونظــام الأقســـام الداخلية في تلــك العهود الزاهــرة، وإن كانت الصــورة التي أعطيتها مختصــرة، جدا وقد تكــون هنالك كثير من الجوانب تركتها إما ســـهواً وإما لأنني لا أرى كبير فائدة منها للقــارئ الكريم، وذلك مثل أنــواع التأديب والعقاب وغير ذلك. ومن شـــاء الدراســـة الكاملة لهذا النظــام فعليه أن يقرأ أولا ســـير أبي الربيع ســـليمان بن يخلف، ثم نظــام العزابة الذي وضعه أبو عبدالله محمد بن بكر الفرســـاطائى فإنه يجـــد فيهما ما يتوق إليه من التدقيق والتوسع.